الجزء ٥ المجلد ١٠



(دمشق) : ايار سنة ١٩٣٠ م الموافق ذي الحجة سنة ١٣٤٨ هـ ١١٣

المسكرات ومضارها (١)

للامم كما للأفراد قوام مادي وقوام روحي . فقوام الامم المادي افرادها ، وقوامها الروحي مبادئها العامة التي تؤلف ما بين اولئك الافراد فتجعل منهم جسداً واحداً يتحرك بحرك واحد . اما نسبة المادة الى الروح في تأليف الامة فهي كنسبة الاحجار الى البناء . فكما ان الاحجار المتفرقة لا تؤلف بنياناً مهما كثر عددها وتماثل شكلها الا اذا تراصّت وتلاصقت وشد بعضها بعضاً على شكل هندمي معروف . كذلك الافراد فهم لا يؤلفون أمة مهما كثر عددهم وتشابهت سحنهم وتوحدت اصولهم وتثقفت أذهانهم اذا لم تجمعهم جامعة عامة واحدة فيتأثرون بمؤثر واحد . يعيشون لاجله ويموتون في سبيله .

وقد يضعف قوام الامم المادي و يبقى قوامها الروحي صحيحاً فتحتفظ بكيانها الاجتماعي كما يحتفظ عليل الجسم بحقوقه المدنية اذا لم تتطرق العلة الى ملكاته النفسية . اما اذا فقدت الامة مبادئها العامة فتفقد ثمة حياتها الاجتماعية وتصبح لا كيان لها في العالم الادبي . فيستولي عليهـا الصحيح من الامم . كما يحجر على مؤوف العقل على الرغم من سلامة سائر اعضائه ، وقوتها ، وجمالها . سنة الله في هذا الكون ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وقد أتى على الامة العربية الى يومنـا هذا عوامل مختلفة ، دينية وسياسية وادارية واجتماعية أفقدتها مبادئها العامة ، فأضاعت معها كل ما كان لها من عز وسلطان و كيان

---

(١) محاضرة الاستاذ الدكتور اسعد بك الحكيم القيت في ردهة المجمع العلمي في ٢٥ تشرين الاول سنة ١٩٢٩ م .

سياسي واجتماعي ، و بانت على ما هي عليه اليوم ، مما يندى الجبين لذكره و يهلع القلب لذكراه · فهي تعيش اليوم حياة فردية طائفية ، أشبه بها باحجار هيكل عظيم ، قوّضه زلزال شديد ، فتناثرت على الارض محتفظة بصلابتها ورونقها · فليت شعري ما يكون امرها غداً · امرها أيها السادة احد شيئين : اما ان يتطرق الفساد الى جوهرها بتأثير العوامل الطبيعية المختلفة ، فتفقد ثمة خصائصها ، فتتفتت ثم تضمحل · واما ان تحتفظ بشكلها وخواصها الى ان تصادف يداً عاملة فتعيدها سيرتها الاولى · وبكلمة عامة : الحياة السياسية ممكنة مادام الجوهر الفرد صحيحاً · وقد كان الاعتقاد ايماناً بان لا بد لهذه الامة من نشر بعد هذا الطي المستمر ، وذلك بالنظر لسلامة قوامها المادي أعني افرادها الذين لم يزالوا محافظين بعامل الوراثة على كثير من خصائصهم القومية ، فهم بمثابة تلك الاحجار الصلدة المهذبة المتناثرة من ذلك البنيان المتهدم ، غير ان هذا الايمان القوي قد اخذ يتحول الى رجاء في هذه الآونة الاخيرة ، لما ظهر في البلاد العربية من الامراض الاجتماعية الفتاكة التي تهدد الفرد بحياته المادية والنفسية ، وترمي الى افساد مبادئه وخصائصه العنصرية وهي الدعامة الوحيدة لوحدته المنشودة ، فيصبح كالغراب غريباً ، ينكره التالد ولا يلحق به الطارف · أمراض اجتماعية تسربت الى هذه البلاد الضعيفة تحت ستار الحضارة والمدنية البراق · وشر الادواء ما كان خفياً ، وشر السموم ما كان شهياً ، فتهافت عليها الناس تهافت البعوض على النور يحسبون السعادة في نورها ، فتلتهم حياتهم نيرانها ، واشد هذه الادواء فتكاً في النفوس واعظمها خطراً على الحرث والنسل (الغولية) اي داء المسكرات ·

اقول الغولية وهي نسبة الى الغول ، والغول في اللغة السكر ، وفي مصطلح العلم المادة المؤثرة المسكرة الموجودة في المواد السكرية والنشائية المائعة المتخمرة كخمر العنب ونبيذ الشعير والأرز والتفاح وغيرها · وقد كان يُظن قبل الاسلام ان الخمور مسكرة بذاتها فلما جاء الاسلام ووصف خمر الجنة · قال في تعريفها : (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) اي مافيها مادة مسكرة ينشأ عنها الصداع والسكر يقال لها غول · فأفاد بان الخمر ليست مسكرة ومصدعة بذاتها بل هي مسكرة بمادة خاصة موجودة فيها تدعى الغول ، تُحرم لاجلها لانها هي التي تفسد العقل وتسكر ·

و بالنظر لجهل الناس علم الكيمياء في ذلك العصر لم ينتبهوا الى معنى كلمة الغول العلمي ففسروها بمعناها اللغوي وهو السكر مما أوقعهم في الاختلاف في تحريم النبيذ وعدمه . ولم يتوصل العلم الى معرفة الغول وتجريده عن المواد المتخمرة الا بعد ان اكتشف العرب التصعيد والتقطير في القرن الثاني للهجرة فصعدوا الخمر وقطروها واستخرجوا منها الغول ويسمونه روح الخمر والعرقي والزئبق الحار . قال داود : العرقي هو المأخوذ عن الخمر بالتصعيد والتقطير وقد يؤخذ من الأنبذة . ومن هذا يتبين لنا ان القرآن ذكر الغول بمعناه العلمي قبل ان يتوصل العلم الي اكتشافه وبيان خصائصه . وقد اخذه الفرنج عن العرب ونقلوه الي لغتهم بلفظه العربي ، و بالنظر لعدم وجود الغين في لغتهم استبدلوها بالآش فقالوا بدلاً من ألغَوْل ألكوهول . ثم لما جاء الأتراك وأرادوا نقل العلوم من اللغات الفرنجية الى لغتهم لم ينتبهوا الى ان أصل كلمة ألكهول هي ألغول فقلبوا في نقلها الآش حاءً فصارت ألكحول . وقد شاعت لفظة الكحول على الالسنة حتى ظنها الناس فصيحة ، بينما انه لا يوجد لها اصل في اللغة يشير الى مدلولها وباتت كلمة الغول الفصحى غريبة لعدم تداولها وهي أجدر بالمودة والاستعمال .

فالغول والحالة هذه هو المادة المسكرة الموجودة في الخمور ، والمعروفة باسم الكحول او السبيرتو العامية ، والغولية هي الداء الذي يحصل من إدمان شرب المسكرات اي المشروبات التي فيها غول ، وهي كثيرة في هذا العصر . وتنقسم الى قسمين : القسم الاول المشروبات الروحية . والقسم الثاني الخمور والانبذة .

المشروبات الروحية — فالمشروبات الروحيـة هي الموائع التي تحتوي على اربعين الى ستين في المئة من الغول ، والباقي ماء ، وعلى روائح عطرية مختلفة . وأهم أنواعها العرق . ويستخرج من الخمر مع الآنيسون ، وهو مركب من غول وماء وعطر الآنيسون . ومنها القونياق ، وهو عرق الخمر الأبيض يحفظ مدة طويلة في براميل من خشب الصفصاف يكتسب منها رائحته ولونه . وقد سمي بالقونياق نسبة الى بلدة قونياق في فرنسا التي يصنع فيها . ومنها الروم (Rhum) وهو عرق نبيذ الكرز البري . ومن المشروبات الروحية الانواع المدعوة (Liqueurs) اي المشروبات الحلوة وهي الاشربة الغوليـة

الممزوجة بالماء والسكر وبعض الارواح العطرية ، واشهرها الابسنت اي مشروب الافسنتين والبيتر والفرموت والشارتروز وغيرها.

الخمور — . اما الخمور فأهمها الخمر ، وهو عصير العنب المختمر ، وهو يحتوي على ثمانية أجزاء الى عشرين جزءاً في المئة من الغول وعلى خمسة وسبعين جزءاً ماء وعلى مواد زلالية وعفصية وملونة ، وعلى حوامض وعلى أملاح قلوية ترابية وعلى ارواح عطرية. ومنها الانبذة وهي الخمور التي تحصل من عصير غير العنب ، وانواعها كثيرة ، واسماؤها تختلف بحسب المواد التي تتألف منها ، وأشهرها : المزر او البيرا (الجعة) وهو نبيذ الشعير المعطر بحشيشة الدينار ، وهي تتركب من ثمانين جزءاً من الماء ومن ثلاثة الى ثمانية اجزاء من الغول ، وفيها مواد سكرية وزلالية ودهنية واملاح قلوية ترابية وحوامض ، ومنها المصع . قال داود وهو نبيذ الفواكه . ومن انواعه : السيدر ، وهو نبيذ التفاح ، والبوارة وهو نبيذ الأجاص ، ومنها الرائب وهو نبيذ اللبن وهو شائع الاستعمال في روسيا ويسمى الكوميس . وكمية الغول في هذه الاشربة اقل مما هي في الخمر .

هذه هي الاشربة المسكرة المستعملة اليوم في جميع أقطار العالم ، وهي مركبة كما أوضحناه من عنصر أساسي مسكر خاص واحد هو الغول ، او روح الخمر ، وبه سميت هذه الاشربة المشروبات الروحية ، ومن عناصر أخرى مختلفة كالماء والمواد الزلالية والسكرية والعفصية والملونة والحوامض والاملاح والارواح العطرية . وهذه كلها معروفة الخواص وغير مقصودة بالذات . وتوجد في سائر الاشربة كالجلاب وشراب السفرجل والرمان والورد وغيرها بكميات وكيفيات مختلفة .

ومن هذه الخلاصة التحليلية يتبين لنا ان المشروبات الروحية او المسكرة لا تختلف عن سائر الاشربة المنعشة والمرطبة الا من جهة واحدة : هي وجود الغول فيها . فالخمر اذا جردناها من الغول تعود جلاباً لذة للشاربين ، والعرقي اذا جردناه من الغول يصبح ماء معطراً كماء الزهر وماء الورد لا يصدع ولا يسكر . فالغول والحالة هذه هو العنصر الاساسي المقصود من الاشربة الروحية ، هو الجوهر الفرد الذي تقوم به هذه الاشربة وتعز ، فهو منها بمثابة الروح من الجسد ، وكما ان قيمة الاجسام تقدر بحسب

صفات نفوسها كذلك نقدر منافع الاشربة الروحية ومضارها بحسب خصائص الغول الذي فيها . اعني تأثيراته في كل من اجهزة الجسم البشري واعضائه . ولعمري ان هذا المطلب وعر المسلك صعب المنال لما فيه من تضارب عظيم في الآراء واختلاف شديد في المذاهب . فمن قائل مع ابي نواس :

ومقعد قوم قد مشي من شرابها   واعمى سقيناه ثلاثاً فابصرا
واخرس لم ينطق ثلاثين حجة   ادرنا عليه الكأس يوماً فهمرا

او مع ابن صاحب تكريت حيث يقول :

ولو رسم الراقي حروف اسمها على   جبين مصاب جن أبرأه الرسم
ولو طرحوا في ظل حائط كرمها   عليلاً وقد اشفى لفارقه السقم
ولو نضحوا منهـا على قبر ميت   لعادت اليه الروح وانتعش الجسم

ومن مردد قول الصفدي :

دع الخمر فالراحات في ترك راحها   وفي كأسها للمرء كسوة عار
فكم البست نفس الفتى بعد نورها   مدارع قار في مدار عقـار

ومن الاطباء من جعلها غذاء خيراً من الحنطة والعسل . ومنهم من صيرها ترياقا فيه شفـاء الروح والجسد . ومنهم من ذهب الى انهـا نار تحرق الاجسام ولا تبقي على الارواح . تهلك الحرث ولا تذر النسل . فليت شعري اي هذه الاقوال الصحيح . وايها اهدى للحق ؟ ومَن من هؤلاء الرجال المصيب ، ومن منهم المخطئ ؟ كلهم ايها السادة مصيب على حد قول الشاعر :   رأيت بعينها ورأت بعيني .

وذلك لان كلا منهم نظر الى المسكرات بعين عقيدته الموروثة وهواه : (وعين الرضا عن كل عيب كليلة) . وللمعتقدات والعادات تأثير عظيم في تكييف الافعـال العقلية وتوجيهها ، ولولا ذلك لما تباينت آراء الناس في المذاهب والاحكام والاخلاق ، فكم من حقيقة علمية كان العـالم باسره يعتقد بعكسها ، حتى اذا ظهرت قاومها بالشدة والعنف ، مدفوعاً بعامل الشعور البهيم الى ان خمدت سورة هذا الشعور الموروث وتغلبت قوة العقل عليه فأخذ يؤمن بصحتها هازئاً بخطأه الاول وجهله القديم . ونظرة عامة في صفحات التاريخ ، تاريخ نشوء الافكار وتطورها ، تاريخ الكشوف العلمية والدعوات الدينية تكفي لادراك

هذه الحقيقة الناصعة ، وللدلالة على ان صوت المجموع ليس هو على الدوام صوت الحق ، وان الفرد يرى بعين العقل مالا يراه المجموع بميله وعاطفته الغريزية وان النور ينبثق من الفرد فيهتدي به الصالحون بادئ بدء ، ثم ينتشر الى ان يعم المجموع . هكذا قامت الدعوات الدينية ، وهكذا ظهرت الكشوف العلمية والانقلابات الاجتماعية ، ومن يجهل ما لاقاه دعاتها وهم على الحق والعالم على الباطل ، من ضروب الاضطهاد والهوان وانواع القتل والتعذيب ، وما هي الا دورة من دورات الفلك حتى انقلب الليل نهاراً ، وللباطل جولة ثم تضمحل . فاخذ الناس يدخلون في دين الحق افواجاً عالمهم ثم جاهلهم وصحيحهم ثم مريضهم ، مقدسين من كذبوا بالامس يرفعون له التماثيل ، و ينعتونه بالنابغة الكبير والعالم الجليل ، هكذا كان شأن العالم مع الرسل والمصلحين ، وهكذا كان شأنهم مع سقراط وغاليله ، وهكذا شأنهم اليوم مع العلم والعلماء في الحكم على المسكرات .

الف الانسان الخمرة منذ آلاف السنين ، وعافها بعضهم حتى خامرت عقله ولبه وامتزجت بلحمه ودمه ، واصبحت عنصراً ضرورياً من لوازم حياته ، فهي ماؤه وهي غذاؤه وهي راحه وهي ريحانه ، تجارتها اروج تجارة وصناعتها اعظم صناعة ، حتى ان من الامم العظمى من جعلها ثمرة حرثه وزرعه وقد عم الخطب بها حتى بات شربها مظهراً من مظاهر المدنية والحضارة وجفاؤها ضرباً من ضروب التوحش والغباوة ، وذلك حتى اواخر القرن الماضي واوائل العصر الحاضر حيث اخذ العلم يستقرئ خواص الغول في الجسم البشري ، وما هي الا عشرات من السنين حتى ظهر للعلم بان العالم على باطل في معتقده في منافع الغول وحسناته . فأخذ يدعوهم الى تركه والايمان بمضاره وسيئاته . فليت شعري هل من غرابة اذا انكر الناس — والناس من وصفت — دعوته وسفهوا كلمته ، وصاح قوم انا وجدنا آباءنا عليه عاكفين ، وقام باعته وصناعه يغرون الكتبة بالمال ليطفئوا نور العلم باقلامهم يتسو بد وجوه الصحف وصحائف الكتب باطراء منافع المسكرات ومضار تركها ولا مشجع لهم سوى اعصاب الناس المتسممة ، ولا دليل سوى الهوى ولا مملي سوى قوة الخيال ؟

ما في ذلك لعمر الحق غرابة ، فتلك نفرة طبيعية لم يخل من مثلها تطور من تطورات العالم الى يومنا هذا . واذا اضفنا الى هذه العوامل النفسية الحسية ، العوامل

الاقتصادية والخسائر العظمى التي تنال بعض الامم من تعطيل صناعة المشروبات الروحية وهي تقدر بالملايين من الليرات تتجلى لنا خطورة موقف العلم والعلماء اللاغوليين ، وهول جهاد دعاة المسكرات في معترك الدفاع الهائل ، يتجلى لنا كيف يتغلب صوت الحق الضعيف على جلبة الباطل الهائلة ، يتجلى لنا كيف تنبعث شرارة الحق الضئيلة في ظلمات غابات الباطل المتكاثفة فتضيئها رويداً رويداً الى ان تصبح شعلة متأججة من نور ، دعا العلم العالم في اوائل القرن الحاضر الى الايمان بمضار المسكرات ، فاستشاط العالم غضباً وحنقاً ، وما هي الا سنوات معدودات حتى دخل في دين العلم اصح الناس اجساماً واشدهم بالمحافظة على الحرية الشخصية تمسكاً وايماناً ، فغلوا حريتهم هذه بايديهم وهي ما عبدوا ، وقضوا على نفوسهم بانفسهم وهي ما قدسوا ، ولا غرابة فقد سبق القول بان الحق يهتدي اليه العالم فالجاهل ، والصحيح فالمريض .

ومن العجب العجاب ان تقوم الحرب ضروساً في اوربا واميركا ، في بلاد المشروبات الروحية ومواطنها للقضاء على الغول وطرده وتطهير النفوس والاجسام من شروره ، فتفتح البلاد العربية لهذا الطريد الممقوت ابوابها كأنها استطابت هلاك الجسم فهي تريد ان تضيف اليه فساد النفس ، والنفس هي الاسم الباقي من ذلك الرسم العظيم الفاني .

فيا ايتها النفس الثملة ارجعي الى عقلك راضية نادمة ، واعلمي ان هذا الضيف الجديد اشد خطراً عليك من سائر العناصر الغريبة التي تعيث في ارضك ، والجراثيم القتالة التي تفتك في جسمك ، وذلك لان الارض مشاع والجسم موقوف ، واذا اردت شاهداً على صدق هذا القول ، فاستنطقي العلم ، والعلم هو الحق فهو يشهد و يقول .

« كلمة العلوم الطبيعية والطبية الاخيرة في الغول »

صفاته — . الغول جسم مائع لا لون له ذو رائحة خاصة وطعم حار محرق قابل للاشتعال ، يستخرج من الموائع السكرية والنشائية المختمرة كعصير العنب والتفاح والكمثري والشمندر وقصب السكر والتمر وغيرها ، وكنقوع الشعير والحنطة والذرة والارز والبطاطا وغيرها . فان النشا يتحول فيها الى سكر ، وعندما يتم فعل التخمر في هذه الموائع تتحول الى محاليل غولية يختلف مقدار الغول فيها بين ستة الى عشرة في

المائة . ويستخرج هذا الغول منها بالتقطير بادوات خاصة منها الانبيق المعروف . وتختلف اسماؤه قبل انقاوته حسب مصدره . فالمستخرج من خمر العنب يسمى عرقياً والمستخرج من قصب السكر يسمى روما وهلم جرا .

وللغول منافع عظيمة في عالم الصناعة فهو من اهم المحروقات ذات الحرارة الشديدة وهو يذيب كثيراً من الارواح والعناصر الدهنية ويستعمل لاستحضار كثير من الموائع العطرية كالقلونيا وغير ذلك .

« استعماله في الطب »

اما استعماله في الطب كعلاج فيرجع تاريخه الى عام ١٨٦٠ ، واول من استعمله في ذلك التاريخ الطبيب روبرت تود في شرابه المسمى باسمه . فعالج به ذات الرئة ، وقد شاع استعماله منذ ذلك العهد في جل الامراض ، ولا سيما الحميات العفنية ، ووقع الافراط في وصفه شأن كل علاج جديد حتى ان من الاطباء من كان يصفه بمقادير عظيمة تجعل المريض في حال السكر الشديد . غير ان التجارب والمشاهدات لم تلبث ان أظهرت مضار الغول للعيان ، فخمدت هذه السورة العمياء واخذ الاطباء يقللون من وصف الغول في معالجاتهم ، و يحددون استعماله ومن العلماء اليوم من يحرم استعماله بتاتاً .

تأثيره الفسيولوجي — . اما درس تأثير الغول الفسيولوجي فيرد تاريخه الى أواخر القرن التاسع عشر . وقد تخلل هذا الدرس صعوبات جمة ، منها ما هو ناشئ عن المعتقدات والآراء الخارجة عن العلم ، ومنها ما هو حاصل من اختلاف طرق التجارب العلمية وتعدد أنواع الاشربة الروحية وتنوع تراكيبها . ومما يجب ملاحظته واعتباره في درس تأثير الغول الفسيولوجي . مدة استعماله ، والسن ، والجنس ، والبنية ، والوراثة ، وصحة الجسم ، وحالة الكبد ، والكليتين ، والجهاز العصبي . وذلك لان لكل من هذه العوامل تأثيراً خاصاً في تكييف فعل الغول في الجسم البشري .

وقد تبين من التجارب التي قام بها الاستاذ بوشه (Pouchet) ان الكمية اللازمة لقتل الانسان الكهل المعتدل الجسم الذي لم يألف شرب الغول البتة ، هي ستة غرامات غولاً لكل كيلوغرام من وزنه ، فالرجل الذي وزنه خمسة وستون كيلو غراماً يقتل اذا

شرب ٣٩٠ ثلاثمائة وتسعين غراماً من الغول الصرف اي تسعمائة غرام من العرقي او القونياق • وقد شاهد طفلاً عمره ستة أشهر أعطي شراباً فيه ملعقتا قهوة من القونياق فمات في تسع ساعات • و يختلف تأثير الغول حسب ما يكون صرفاً اوممزوجاً وبنسبة تمديد هذا المزج •

هل الغول غذاء — ومن أهم المسائل التي تنازعت فيها آراء علماء الفسيولوجيا زمناً طويلاً مصير الغول في الجسم البشري • وهل هو غذاء كاللبن والسكر • فمن الاطباء من كان يقول بان الغول يحترق في الجسم كسائر الأغذية • ومنهم من قال بانه يجتاز الجسم اجتيازاً دون ان يتحول فيه تحولاً يستحق الذكر ومن دعاة الفريق الاول ليبيج (Liebig) فهو يقول بان الغول يقوم في الغذاء مقام المواد السكرية والنشئية • وهو يفضلها و يفضل المواد الزلالية ايضاً كاللحم والبيض لان الغرام منه ينشر سبع سعرات (والسعرة هي الكالوري) بينما الغرام من اللحم والسكر لا ينشر سوى ثلاث سعرات ونصف الى اربع سعرات • وقد ظل هذا الخلاف قائماً ما بين الاطباء الى ان قام شوفو (Chauveau) عام ١٩٠١ بسلسلة تجارب على الحيوانات درس فيها قيمة الغول الغذائية بالنسبة الى المواد السكرية • وقد أسفرت هذه التجارب عن النتيجة الآتية :

ان ابدال قسم من السكر بقسم يعادله من الغول في قوام غذاء الرجل الذي يشتغل يحدث نقصاً في قيمة العمل العضلي المطلق •

وفي سنة ١٩٠٢ قام اتواتر وبنديك في اميركا بتجاربهما المشهورة ، وهي التي تقوم عليها أفكار العلم الحاضرة • وخلاصتها : « ان الغول يحترق في الجسم ، عدا قسم صغير يفرز بواسطة الكليتين والجلد والرئتين » • وبما ان قيمة الاغذية كانت تقدر في ذلك العهد ، اي قبل الحرب العامة بمقدار السعرات ، اي الحرارة التي تصدرها • استفاد باعة الغول وتجاره من نتائج تجارب اتواتر وبنديك ، فاستثمروها لمصلحتهم واخذوا يطرون منافع الغول الغذائية بالنشرات والصحف اليومية ، تحت عنوان : (الغول غذاء) ولكن لم تلبث هذه النظرية طويلاً حتى بدا خطأها • فقد برهن روبنير (Rubner) على ان الحرارة التي يحدثها الغذاء هي عرض ، وليست هي الغاية • وان نظرية تنظيم الاغذية

بحسب مقدار الحرارة التي تحدثها فاسدة ، وان قيمة الغذاء تقدر بحسب ما يستفاد من قدرته في حصول الافعال الحيوية ضمن شرائط التغذية والحرارة الطبيعية ، ولو لم يكن الامر كذلك لساغ لنا ان نستعمل بدل غول الخمر غول البطاطا مثلاً الذي يستعمل للشعل لانه يحدث حرارة اكثر منه . هذا وقد صرّح انواتر بنفسه وكلمته هي كلمة سائر علماء الفسيولوجيا اليوم ، بانه اذا كان الغول بعد غذاءً فهو غذاء سيئ ، غذاء مكروه ، لانه يخرب الجسم اثناء اشتغاله فيه . هذه آخر كلمة علم الفسيولوجيا في أهم خاصة كان يمتع بها الغول حتى اواخر الحرب العامة . ولننظر الآن في تأثيره في أجهزة الجسم البشري كل منها على حدة .

تأثير الغول في الجهاز الهضمي — . عندما يشرب المرء جرعةً خفيفةً من الغول يشعر في ناحية معدته بحرارة لطيفة ، اما اذا كانت الجرعة كبيرة فان هذا الحس يكون سيئاً ، واذا تجرع الانسان الصحيح مقدار خمسة غرامات اي درهماً ونصف درهم من الغول الممدد بالماء بنسبة ثلثيه فان هذه الكمية تحدث زيادة في الافرازات المعدية الهاضمة . اما اذا أدمن الانسان الشرب ، فان كمية الافرازات المعدية تنقص و يقل فيها فعل الهضم وتتصلب أنسجة المعدة وتنشأ عنها الالتهابات وسوء الهضم المزمن والقيء الذي يشاهد غالباً عند السكيرين .

تأثيره في الدم — . عندما تمتص المعدة الغول يدخل الدم فيجفف ماءه و يخرب من كرياته الحمراء و يزيد في عدد كرياته البيضاء ويتحد مع اوكسيجين الدم ليتحول الى حامض خلي وخلات الصودا فتنقص قلوية الدم وتتوقف المبادلات الحيوية .

تأثيره في الجهاز الدوراني — . ان الجرعات المتوسطة من الغول تحدث بادئ بدء زيادة في عدد الضربات القلبية لا تلبث ان يعقبها تناقص . و يزداد الضغط الدموي في بادئ الامر ثم يخف . اما اذا كانت الجرعات كبيرة ، فان فعل الغول الفالج يظهر حينئذ جلياً وتتناقص سعة ضربات القلب و يخف الضغط الدموي و يقع عدم الانتظام في الحركة القلبية . و يحدث إدمان الغول تصلباً في الشرايين الشعرية وفي الاوردة

ولا سيما أوردة الاطراف السفلية ، وعصبدة في أوعية الدماغ تنشأ عنها جميعاً امراض القلب واوجاع الساقين والفالج ٠

تأثيره في الجهاز التنفسي — ٠ ان الجرعة الخفيفة من الغول تزيد في سرعة التنفس وسعته ، وكمية امتصاص الاوكسيجين ، ونبذ حامض الفحم ، و يعقب هذا التزايد نقص في هذه الافعال ولا سيما اذا كررت الجرعات فيحصل بطء في التنفس و يصير سطحياً وتنقص المبادلات التنفسية فتتعرّض الرئة للالتهابات كذات القصبات المزمنة وذات الرئة والغرغرينا والسل الرئوي ٠ اما تأثير الغول في الحنجرة فانه يحدث فيها التهاباً مزمناً يولد خشونة في الصوت يُعرف مدمنو السكر منها لاول وهلة ٠

تأثيره في الحرارة والمبادلات — ٠ يعتقد كثير من الناس ان الغول يزيد في حرارة الجسم ، فهذا الاعتقاد باطل مخالف للحقيقة ، فان الجرعة الخفيفة من الغول لا تحدث تبدلاً في حرارة الجسم ٠ اما الجرعات الكبيرة فقد سبق لنا القول بانها تحدث بطأ في ضربات القلب ، وهبوطاً في ضغط الدم ، وتوقفاً في المبادلات الدموية ٠ فينتج عن ذلك هبوط في حرارة الجسم ٠ قال الاستاذ بوشه : « تهبط الحرارة المركزية عند الثملين الى درجة ٣٠ او ٢٦ وهو هبوط عظيم » ٠ ولهذا يحظر الطب استعمال المشروبات الغولية في الاسفار الباردة لان الحرارة التي يشعر بها الشارب هي حرارة وهمية ، وضحايا القونياق في الاسفار الباردة عظيمة ومشهورة ٠

تأثيره في اعضاء التناسل — ٠ قال لانسرو (Lancereaux) ان ادمان الغول يحدث ضمور المبيض عند المرأة ٠ وقال برتوله (Bertholet) شاهدت اثناء تشريح جثث مدمني السكر ضموراً وتصلباً في الخصى ولم أشاهد الحوينات المنوية في ست وثمانين من المئة من الحوادث التي شرحتها ، وهذا يوضح لنا اسباب العقم والعنّة المشهودين عند كثير من مدمني الغول ٠

تأثيره في الكبد — ٠ ان التسمم المزمن بالغول يحدث تخريباً عظيماً في خليات الكبد والنسيج الخلالي ، و ينشأ عن هذا التخريب امراض كثيرة ، منها اليرقان الخفيف ومنها تورم الكبد وتشحمه وتضخمه وضموره وتشمعه والاستسقاء ونزيف الدم المعوي والبواسير ٠

افراز الغول — ان التجارب التي قام بها نيكلو (Nicloux) واقرها مجمع العلوم اثبتت ان الغول يفرز بواسطة البلغم واللعاب وعصارة (البنكرآس) والصفراء ومائع النخاع الشوكي والمني واللبن عند المرضع والمبيض والبروستات والمشيمة ، فأن الرجل الذي يلامس امرأته في حال السكر يفرز حوينات منوية ثملة يأتي ولده من تأثيرها معرضاً لداء الصرع وللالتهابات الدماغية . وان المرأة التي تتجرع قبل الولادة بساعة مقداراً من القونياق يشاهد الغول في دم الجنين بعد الولادة ، وان المرأة التي ترضع ولدها وهي سكرى ، تسكره وتعرضه لامراض عصبية وخيمة . وقد اهتمت الامم المتمدنة اهتماماً عظيماً لهذه النتائج العلمية لما لها من العلاقة الكبرى في تربية الاطفال واصلاح النسل .

تأثير الغول في الجهاز العصبي — ان للغول ولوعاً خاصاً بالاعصاب فهو يؤثر فيها مباشرة فينبهها بادئ بدء ثم يحدث فيها خدراً فاسترخاء فالفالج حسب قلة الكمية المأخوذة وكثرتها . وقد تبين من التجارب التي قام بها اخيراً هانماير : ان للغول تأثيراً كيماوياً في الاعصاب ، فهو يذيب شحومها ويحدث انقباضاً في زوائد العصيبات فيضعف فعلها ثم يبطله ، فالغول والحالة هذه مخدر غير منبه كما يظن ، وما النشاط الموقوت الذي يشعر به الثمل بادئ بدء الافعل منعكس عن اعضاء الحس ولاسيما الذوق ، وقد اظهرت التجارب العلمية ان الكمية المتوسطة من الغول التي لاتتجاوز العشرة دراهم تساعد برهة قليلة على زيادة العمل ولكن هذه الزيادة لا تلبث اكثر من عشرين دقيقة حتى تتلاشى ويعقبها نقص في القوة العضلية ، وقد ايدت تجارب اندية الرياضة البدنية ومشاهداتها هذه الحقيقة العلمية . والغول مبطل للحس خلافاً لما يدعيه شاربوه من ان احساسهم يزداد بشربه ، اما سبب ادعائهم هذا فناشئ عن نقص شعورهم بفعل الغول المخدر ، فالثمل لا يحس بالالم ، وقد استخدم الجراحون هذه الخاصة قديماً لتخدير المرضى لاجراء العمليات الجراحية الكبيرة .

اما الحالات المرضية التي تنشأ عن هذه التأثيرات فاهمها : الرعشة والآلام العصبية وذات الاعصاب المجتمعة ووهن الاعصاب والفالج . واذا استطلعنا احوال عشرة اشخاص من معاقري المشروبات الروحية نجد ان الثمانية منهم يشكون وهناً في عضلاتهم وهبوطاً في

قواهم الجسمية والعقلية وثقلا في رؤوسهم وتغيراً في طباعهم اهمه الحدة وسرعة الضجر ، واذا قلت لهم ان هذه الاعراض ناشئة عن شرب المسكر يجيبونك سلباً بانهذه الاحوال تزول بتاتاً بشرب الغول ، وما ذلك الا لان الغول مبطل للحس ، وهل من شعور لمن بطل حسه .

قال لغران (Legrain) في كتاب التسممات من مجموعة الامراض الباطنة والمداواة المطبوع سنة ١٩٢٣ « ان اصغر كمية من الغول تحدث اضطراباً في الافعال الدماغية الطبيعية ، واذا كان هذا الاضطراب لا يقع تحت ادراك حواسنا لدقته فهو يبدو لنا جليًا عندما تزداد كمية الغول ، ويؤول غواة الغول هذه الاختلالات الدماغية تأويلاً مخالفًا للحقائق العلمية مستندين الى الحس الذاتي المتسمم وهل لم يرض من شهادة تقبل مغضين الطرف عن تجارب العلم ومشاهداته ، واهم هذه الدعايات المخالفة للعلم هي ان الغول منبه ومنشط ، على حين اثبتت التجارب انه مخدر ومنوم . اما النشاط الذي يشعر به السكيرون فما هو الا اشارة الى اختلال الموازنة في الملكات النفسية العصبية ، فهو خطأ حسي متولد من تخدير قوة المراقبة النفسية » ومن النوادر التي تروى عن ابي نواس وهي تدل دلالة واضحة على نقص ملكة الشعور الباطن وشلها اثناء السكر ما روي من انه شوهد يوماً يضحك من رجل سكران لقيه في الطريق ويسخر به ، فقيل له لم تهزأ به وانت في كل يوم مثله : فاجاب اني والله لم اشاهد في حياتي سكراناً قبله ، وذلك اني اول من يسكر وآخر من يصحا .

تأثيره في الاخلاق — اما السكر المزمن فانه يقود حتماً الى فساد الطباع والغرائز وضعف الفاعلية وفساد الانفعالية ، فيعتري المرء الضجر والملل ويصبح شرس الخلق ، لا ثبات له على العمل المنتج ، ويفقد الشعور العيالي فلا يهتم بواجباته الزوجية و يهمل مصالح بنيه ، و ينحصر همه في الحصول على ما يتطلبه من الغول بدافع الاحتياج الجسمي ، و كثيراً ما يقوده هذا الاحتياج الى بذل ماء وجهه ومعاشرة الادنياء والسفهاء ، وفقد الغيرة على العرض وارتكاب الجرائم البذيئة الدنيا ، ثم تضعف ملكاته العقلية رويداً رويداً ، وتعتريه الهذيانات العارضة والاوهام ، والصرع والعتة الى غير ذلك من انواع الجنون ،

ونظارة خفيفة في احصاآت مستشفيات الامراض الباطنة ودور المجانين واحصاآت السجون والمحاكم ، وجولة خفيفة ما بين جدران هذه المصانع العامة تكفي لتأييد هذه الحقائق العلمية الراهنة . فان القسم الاوفر من الجناة والمجانين والمرضي بالآفات العصبية والقلبية والاستسقاء هم ضحايا الغول ، ضحايا المشروبات الروحية ، قال غلادستون : وحسبي بقول هذا السياسي الانكليزي الشهير حجة على صحة ما قدمت « ان مضار الغول تربو كثيراً على مضار الطاعون والحرب معاً » . « ولا غرو فقد قال لغران (Legrain) فاننا اذا جمعنا ما تنفقه الامة الواحدة من الاموال لشراء المواد الاولى الخاصة بصنع الغول كالعنب والحبوب والثمار السكرية وما تتكبده من النفقات على دور المجانين وعلى حياة النفوس التي تقصفها المنون قبل ابناعها ، وعلى العاهات الوراثية ، وعلى المتشردين وعلى الجناة ، الذين كان الغول علة آثامهم وآلامهم ، نجد امامنا مجموعاً يربو على المليار من الفرنكات ، تقف امامه نفقات الحرب العالمية الكبرى وضحاياها صغيرة حقيرة ضئيلة ، مما أهاب بالحكومات و بالعلماء ، والقسم المتعلم من الامم ، ودفعهم الى أن ينادوا بملء أفواههم العدو الداخلي هو الغول . »

تلك كلمتي ايها السادة في تأثير الغول في جسم الفرد . اما مضاره في نفسيته وفي الاسرة وفي الامة فهي ادهى وانكى
(للبحث صلة)

المحاضرة التاسعة

المتنبي

— ١ —

اول عهدي به — دراستنا في الماضي والحاضر كتب التراجم

أرجع بالخاطر الى الماضي ، وبيني وبين هذا الماضي سبع عشرة سنة ، وما هي هذه البرهة قياساً بالزمان الذي لا نهتـدي الى اوائله ، ولا نتصل باواخره ، ماهو العمر كله سواء اطال هذا العمر أم قصر ، وسواء ابتسمت جنبـاته أم عبست ، ما هو عمر الانسان الى جنب أعمار العوالم في الطبيعة ، والى جنب أعمار طبقات الارض . ما لنـا ولهذا التعجب فاننا اذا أمعنا في اشباه هذه المسائل غرقنا في خضم الزمان ، وتبين لنا اننا لم نك شيئاً في العالم ، أرجع بالخاطر الى الماضي ، وقد كان الشباب مئيد الغصن ، أملد العود ، وكان البال هادئاً والفكر ما كنا لم يشغله شيء من شواغل الحياة وما اكثر شواغلها اللهم الا انصرافه الى الادب وتمتعه بآثاره الخالدة ولكن هل كنا نفهم هذه الآثار ؟ هل كانوا يفهموننا اياها ؟ هل كان يحسن فهمنا وتفهيمهم ؟ كنت ورفيق لي اذا اغتنمنا خفة من زحمة مدرستنا نتردد الى مكتبة مطمئنة مستقرة ليس فيها شيء من العظمة وانما عظمتها في حقارة شأنها كنا ننتاب هذه المكتبة في حي رفيقي اي في حي النصارى فما كنا نجالس من الشعراء الا شيخنا اباالطيب ولا كنا نحـادث من الكتاب الا أستاذنا عبد الله بن المقفع .

اني لا أزال اذكر الابيات التي كنا نرددها ونستعظمها ونحن لا نعرف السر في عظمتها ، ومن هذه الابيات ، وهي كريمة علي ، لانها رفيقة الصبوة وشقيقة الروح :

وانا لنلقى الحـادثات بانفس كثير الرزايا عنـدهن قليل

---

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي ومدير الكلية المذكورة .

يهون علينا ان تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنـا وعقول

ومنها : واحتمال الاذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الاجسام

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش اخف منه الحمام

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

ومنها في استعطاف سيف الدولة :

ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضـاكم الم

ومنها في رثاء جدته :

اتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سروراً بي فمت بها غما

حرام على قلبي السرور فانني اعدالذي ماتت به بعدها سما

نعم هذه طائفـة من الشعر الذي كنا نتحدث به انا ورفيقي من دون ان نخوض في شيء من الكلام على بواطن هذا الشعر او نتصدى لكشف الغطاء عن اسراره وانما كان يسحرنا بظاهره فيشغلنا جمال هذا الظاهر عن النظر في جمال البـاطن فكنا نجهل المتنبي ونجهل طبيعة عبقريته وانما كنا نتغنى بشعره حتى افترقنا فطرحتني النوى مطارحها واذا انا في شارع من شوارع الاسكندرية واذا انا في دكان وراق من الوراقين فأخذت عيني ديوان ابي الطيب الذي شرحه الشيخ اليازجي فاشتريت هذا الديوان وحفظت منه ماتيسر لي حفظه وقد ذهب المحفوظ الا اقله وانا لم ازدد معرفة بالمتنبي و بحقيقة حاله وشعره وانما ازددت عبادة له ٠

هذا اول عهدي بشيخنا ابي الطيب وما قدمت هـذا الكلام عبثاً ، ولا رجعت الى الماضي عرضاً ، فلم اتعود ان اقلق غيري واضجره بكلامي على نفسي وانما المرء لا يكون امينا كل الامين الا اذا جرى على لسانه ما تصوره فكره هذا ما قاله اناتول فرانس ، لم اعرض الماضي عليكم عبثاً وانما اردت ان اصف لكم طوراً من اطوارنا في فهم الادب ، اردت ان اصور لكم كيف كانت دراستنا للادب من سبع عشرة سنة ، كنا لا ندري بشيء من جملة حياة الشاعر وجملة اخلاقه وطبائعه وجملة عبقريته ، حسبنا ان نستظهر بعض اشعاره ونروي هذا المستظهر في مجالسنا حتى يطبعنا الادب بطوابعه و يصبنا في قوالبه ، اما اليوم فلا يكفينا ان نملأ اذهاننا ببعض ابيات نجمجع بها في محافل الادب ، تلك حالة

قد خلت ، ليس صاحبها في شيء من الادب ، قرأنا المتنبي فلم نعرف عنه كل شيء تهمنا معرفته ، لم نعرف اين ولد واين نشأ وكيف حصّل وقرأ ، وما هي اخباره من مبادئها الى خواتيمها ، كيف جال في الاقطار وكيف اتصل بسيف الدولة ثم انفصل عنه ، وكيف قصد كافوراً ثم تركه ، وكيف عاد الى بغداد ثم خرج منها ، وكيف رحل الى بلاد فارس ثم غادرها فقتل في طريقه الى وطنه الكوفة ، قرأنا المتنبي فلم نحط بشيء من سلسلة اخباره ، فلم يتبين لنا طراز حياة المتنبي وما قصدنا ان نعرف انه اتصل بفلان او فلان من الوزراء والامراء ، وانما اذا عرفنا جملة اخباره استخلصنا منها نمط حياته فتبين لنا ان هذه الحياة كانت جياشة بالحوادث والفتن فياضة بالقلق والاضطراب يكاد صاحبها لم يعرف الهدوء في يوم من ايامه ، ولم يذق الطمأنينة في ساعة من ساعاته ، اعصاب هائجة مائجة اذا حركوا منها طرفاً انتفضت ولا انتفاض البرق فو يل للذي مسها بسوء .

هكذا قرأنا المتنبي ، اما اليوم فاني احاول ان ادرسه واياكم على صورة اتم ، ووجه اكمل ، احاول اليوم ان اقرأ كل ما اهتدي اليه مما يتعلق بحياة المتنبي ، احاول ان اقرأ شعره وان ادون في دفتري ما توحيه اليّ هذه القراءة ، وان احدثكم في كل اسبوع بما بقي في نفسي من آثارها على مختلف صفات هذه الآثار ، وعلى هذا لا بد لنا من ان ننتقل الى وطن شيخنا ابي الطيب ونراقبه في اطوار حياته بمجامعها ونصحبه في اسفاره كلها ، في جولانه في الشام وفي اتصاله بسيف الدولة ، وفي دخوله مصر وخروجه منها ، وفي رجوعه الى العراق وفي شخوصه من العراق الى فارس وفي مغادرته بلاد فارس وعودته الى وطنه وفي مقتله على طريقه الى الكوفة ، لا بد لنا من ان نصحب شيخنا ابا الطيب من مبدإ منشأه الى خاتمة حياته وان نعنى بجميع ما حدث له من الحوادث في مجالسه كلها وما اكثر هذه الحوادث ، وان نستنبط منها طراز حياته وما ملئت به هذه الحياة من قلق واضطراب ، وما انقلبت فيه من علو وهبوط لا بد لنا بعد الوقوف على دقائق هذه الحياة من معرفة مزاجه وخلقه مستندين في هذه المعرفة الى آثار عبقريته نفسها لا بد لنا من النظر في آثار عصره في شعره وآثار شعره في عصره ، ما الذي اوحاه اليه عصره وما الذي اوحاه الى عصره لا بد لنا من النظر في عبقريته وفي خصائصها راجعين في الاحاطة بهذه الخصائص الى مصادر شعره

وجملة القول : لا بد لنا من ان نعيش مع المتنبي حتى نعرف من هو المتنبي ، وقد يجوز أن يعرض لي في اثناء هذا كله فكر عام يجره فكر خاص ، لان المرء اذا تصور موضوعاً وهيأ له عناصره ثم اخذ قلمه ليكتب هجم على ذهنه شيء ما كان يتصوره ، كان قلم ابن المقفع كثيراً ما يقف فقيل له في ذلك فقال تزدحم الافكار في صدري فيقف القلم لتخيره .

اول ما يهمنا عمله الاحاطة بحياة المتنبي من اولها الى آخرها ، والوقوف على اخباره وحوادثه من دون ان تكون هذه الاخبار مقتضبة مبعثرة فاذا وقع الاقتضاب في الاخبار فاتتنا صورة صاحبها المتكاملة ، فاذا كنا نبحث عن حياة المتنبي وتعرضنا في خلال بحثنا للكلام على شعره من دون ان يكون لهذا الكلام ارتباط بحياة صاحبه شاهت صورة هذه الحياة وقبحت فالاجدر بنا ان نرسل اخبار الحياة دفعة واحدة ، وقد عني الافرنجة بهذا النمط من الترتيب العناية كلها ، اذكر اني قرأت كتاباً عمله « اناتول فرانس » سماه العبقرية اللاتينية ، وصف فيه طائفة من كبار شعراء فرانسة وكتابها من جملة هؤلاء الشعراء (راسين) وكان راسين يكون اكبر شعراء فرانسة عقد له اناتول فصلاً في كتابه يشتمل على خمس وثلاثين صفحة لم يذكر فيها الا حياة راسين من صدورها الى اعجازها وقليلاً ما كان يتعرض للكلام على عبقريته في تضاعيف كلامه على حياته الا ما اقتضاه المقام ، من هذا يتبين لكم مبلغ اخبار الكاتب او الشاعر في الادب الحديث لان لهذه الاخبار تعلقاً بروح الشاعر وباخلاقه وبطبائعه وبعبقريته نفسها .

رجعت الى المصادر التي استطيع ان اهتدي بها الى معرفة حياة المتنبي من جملة هذه المصادر : ابن خلكان ، طبقات الادباء ، يتيمة الدهر ، الصبح المنبي . تصفحت كتاب ابن خلكان فبدلاً من ان يبدأ بالكلام على مولد المتنبي ثم على اهله ثم على تحصيله ثم على اخباره ثم على شعره ، بدأ بالكلام على تحصيله ثم انتقل الى الكلام على شعره ونثره ثم ذكر نظر الناس فيه ثم رجع الى اخباره ثم بيّن مولده ثم ذكر نسبه حتى ركب البحث بعضه بعضاً دون شيء من الترتيب وكذلك صاحب الصبح المنبي فانه عوضاً عن ان يروي لنا اخبار المتنبي دفعة واحدة رواها على صورة مفرقة مبددة وانه ليروي لنا اخبار المتنبي عند سيف الدولة اذ ينقلب بنا فجأة الى اخباره عند ابن العميد ، بحيث قضيت ثلاث ساعات ونصف ساعة في التدقيق والتمحيص حتى اجمع اخبار ابي الطيب كلها ، واصل بعضها

بعض من بدء حياته الى يوم مقتله ، فلو ذكر صاحب الصبح المنبي الاخبار دفعة واحدة من دون ان يتخللها شيء من نقد الشعر او غيره مما لا محل له في فصل الاخبار لكفى القارئ كثيراً من العناء . ادبنا في القديم لا يزال فوضى ينقصه كثير من الترتيب ، وهذه حقيقة واضحة حتى ان هذه الفوضى قد حملت بعض الناس على ان يعتقدوا اننا لا ادب لنا في القديم ، او ان هذا الادب لا قيمة له . وما اعتقدوا هذا الاعتقاد الا لقلة الترتيب في ادبنا فلو روى المؤلفون اخبار شاعر من الشعراء على حدة حتى نستخلص من هذه الاخبار طراز حياته باجمعه . ولو نقدوا شعر هذا الشاعر على حدة حتى نستنبط من هذا النقد رأيهم في الشعر دون ان يتخلل الاخبار شيء من النقد . او ان يتخلل النقد شيء من الاخبار مما لا يتعلق بالنقد . لو فعل المؤلفون هذا كله لكان ادبنا في شكل اتم ، فاذا قلنا ادبنا في القديم فوضى فما في مقالنا شيء من المبالغة . وما اظن ان ادبنا في الحديث فحسن ترتيباً . ومن المؤلم ان يدعو استاذ روسي في المجمع العلمي في لنينغرد وهو الاستاذ اغناطيوس كراتشقوفسكي ادباء العرب الى تنظيم ادبهم في هذا العصر قبل ان يفكر احد من هؤلاء الادباء في التنظيم ، فقد كتب هذا الاستاذ مقالة بالعربية سماها : درس الاداب العربية الحديثة — مناهجه ومقاصده في الحاضر — نظر واقتراح — وارسل مقالته الى مجلة المجمع العلمي في دمشق ، وستظهر هذه المقالة قريباً في مجلة المجمع . وقد قرأتها كلها فان صاحبها دلنا على ما يجب علينا ان ننهجه من المناهج في ترتيب ادبنا الحديث واقترح ان يكون دخول نابوليون مصر فاتحة عصر هذا الادب .

دمشق : في ١١ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

المحاضرة العاشرة

وطن المتنبي

خد العذراء

- ٣ -

« موقع الكوفة — اوليتها - وصفها »

انتقل بكم في غسق ليلتنا هذه من البلد الذي رمى ظله عليه جبار بني أمية الى البلد الذي أورفت ظلاله فيه جبار بني العباس ، انتقل بكم من دمشق الى بغداد :

محضتك يابغداد ودي على النوى وأني ان أمحض ودادي أصدق
فما بردى لولا الفرات بمورد لظمآن ان يشرب من الماء يشرق
ولا دجلة لولا مناهل جلق بمجرى برود كالرحيق مصفق

انتقل بكم من شواطيء بردى الذي نكاد نسمع نجواه وراء قاعة مدرستنا الى شواطيء الرافدين : دجلة والفرات ، تصوروا الامم التي طوتها هذه الانهر الثلاثة ، تصوروا العبقريات التي نبتت على ضفاف هذا الماء السادر في غلوائه ، الجامح في خيلائه ، الذي ماانفك يسخر في ماضيه وحاضره وآتيه من كل جبار عنيد . مالنا ولهذه الذكريات الاليمة ، استغفر الله . وهل الامم الا سلاسل ذكريات . هل كان الحاضر الا ابن الماضي هل كان الآتي الا نتيجة الحاضر ؟ . انتقل بكم من منازل العصابة الذين نادمهم حسان في الزمان الاول بجلق ، من منازل ابناء جفنة على بردى الى منازل النعمان على الفرات من متنزهات الغوطة جنة الدنيا الى متنزهات الخورنق والسدير .

اني لاجوز هذه المواضع كلها دون ان اقف بكم على موضع منها ما خلا موضعاً طلع على الدنيا والناس من عشرة قرون ونيف برجل ملأ الدنيا وشغل الناس ، وقبيح بنا ان نقلق شيخنا ابا الطيب في ضجعته ونبعثه من مرقده من غير ان نطوف بالوطن الذي انبت امثال ابي الطيب ، ولا مثيل له ، ونعرف شيئاً من خصائص هذا الوطن ، والمرء ابن ارضه وسمائه ومائه وهوائه يأخذ من تربته ويعطيها ويناجيه ويناجيها يؤثر فيه كل ناحية

من نواحي هذه التربة فلا يتملص من عوامل طبيعتها ولا ينسلخ من عوامل السياسة والاجتماع والتاريخ في آفاقها ، على ان بعضهم لم يجعل للبيئة المقام الاول في نشوء العبقريات ، قال الاستاذ برونتير :

« لا تنسوا ان المرء وان كانت بيئته تؤثر فيه فهو يستطيع ان يتملص من آثارها وانه يستطيع ان يصرّفها في مصالحه وقد أجمع علماء الطبيعة على هذا الامر ، لا شك في انهم لاينكرون آثار البيئة ولكنهم بعيدون عن ان يجعلوا لها حتى في علم الحيوان المحل الذي جعله لها (تين) في مذهبه » .

وسواء اتركت الكوفة في شعر ابي الطيب أثراً من آثارها ام لم تترك . وسواء اكان هذا الاثر غامضاً ام كان واضحاً لا بد لنا من السياحة في الكوفة .

اين هو هذا الوطن على التحقيق ، نقرأ ان المتنبي ولد في الكوفة في محلة يقال لها كندة ، ولكننا قليلاً مانهتم بمعرفة موقع الكوفة وقليلاً ما نبالي بمعرفة طبيعتها ولا نسأل هل تغنى المتنبي بوطنه ، هل عقّ وطنه . وحسبنا ان نعلم ان الكوفة مدينة من مدن العراق . قال ياقوت في معجمه : الكوفة بالضم المصر المشهور بارض بابل من سواد العراق . لاشك في ان هذا التعريف العام لا يزال مبهماً ، فهو لم يزدنا علماً بموقع الكوفة ، فلم يبين ياقوت اين الكوفة من بغداد واين هي من دجلة اوالفرات حتى انه أورد ابياتاً في هجاء اهل الكوفة من جملتها بيت من الشعر أتحاشى عن ذكره في مثل هذا المقام، يدل هذا البيت على ان الكوفة قريبة من دجلة وهذا خطأ لم ينبه عليه ياقوت .

قال صاحب كتاب بلاد العرب الاستاذ (دي فرجر) مصّر عمر البصرة على خليج فارس ، ومصّر الكوفة على بحيرة الرهيمة . فأين الرهيمة ؟ يقول لنا الفيروزابادي في قاموسه المحيط : ورهيمة كجهينة عين بين الشام والكوفة . وهذا التعريف لا يقل غموضاً عن تعريف ياقوت للكوفة . وردت الرهيمة في شعر المتنبي معرفة بال . لما خرج ابوالطيب من مصر ورجع الى الكوفة وصف منازل طريقه فقال في جملة ما قال :

فيا لك ليلاً على اعكش ... احم البلاد خفي الصوى
وردنا الرهيمة في جوزه ... وباقيه اكثر مما مضى
فلما انخنا ركزنا الرماح ... بين مكارمنا والعلى

من هنا يستدل على ان الكوفة واقعة على الرهيمة او قريبة منها لانهـا آخر ما ذكر المتنبي في قصيدته من المواضع ، وقد ذكر عشرين موضعاً فبعد ان ورد الرهيمة قال : ركزنا الرماح اي بلغنا الى الكوفة .

فالكوفة على التحقيق واقعة على الجانب الجنوبي من بغداد ، في الجانب الغربي من الفرات ، وبينها وبين بغداد مائة واربعون كيلومتراً وصفها عراقي لي فقال : فيها بساتين ولا تزال آثار مسجدها القديم قائمة .

ولئن طولت الكلام على موقع الكوفة فقد تعمدت هذا التطويل لتعرفوا قلة التوضيح وقلة التحقيق في كثير من كتبنا .

ما معنى الكوفة . ويسميها قوم خد العـذراء وسماها عبدة بن الطبيب: كوفة الجند فقالـــ :

ان التي وضعت بيتاً مهاجرة ... بكوفة الجند قد غالت بها غول

قال ياقوت في معجمه :

« قال ابو بكر محمد بن القاسم : سميت الكوفة لاستدارتهـا ، اخذ من قول العرب رأيت كوفانا ، وكوفانا بضم الكاف وفتحها للرميلة المستديرة ، وقيل : سميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس بها من قولهم تكوف الرمل اذا ركب بعضه بعضاً ، و يقال : اخذت الكوفة من الكوفان . هم في كوفان اي في بلاء وشر ، وقيل : سميت كوفة لانها قطعة من البلاد . من قول العرب قد اعطيت فلان كيفة اي قطعة ، و يقال : كفت اكيف كيفاً اذا قطعت فالكوفة قطعة من هذا ، انقلبت الياء فيها واواً لسكونها وانضمام ماقبلها . وقال قطرب : يقال القوم في كوفان اي في امر يجمعهم ، قال ابو القاسم : قد ذهب جماعة الى انها سميت كوفة بموضعها من الارض وذلك ان كل رملة يخالطها حصباء تسمى كوفة . وقال آخرون : سميت كوفة لان جبل ساتيدما محيط بها كالكاف عليهـا . وقال ابن الكلبي : سميت بجبل صغير في وسطها كان يقال له كوفان ، وعليه اختطت مهرة موضعها . وكان هذا الجبل مرتفعاً عليها فسميت به . فهذا في اشتقاقها كاف » .

نعم هذا في اشتقاقها كاف . وهذا اكثر من الكافي ، ثمانية اسباب في تسمية بلد ، يحار المرء في معرفة الاصح منها ، فيخرج من حيرته هادئ البال ، مطمئن الفكر بقوله : والله أعلم .

مالنا ولهذه الفوضى ، فلننظر الى اولية الكوفة في الاسلام ، فلنرجع الى أوائل الفتح الاسلامي ، فلنرجع الى ايام عمر بن الخطاب دون ان نجاوز هذا الزمن مخافة ان نضيع في مجاهل العصور .

بنيت الكوفة في خلافة عمر بن الخطاب على مقربة من أطلال الحيرة ، منازل المناذرة والاكاسرة قبل الاسلام . قال قوم : مصّرت الكوفة في السنة التي مصّرت فيها البصرة وهي سنة ١٧ ، وقال آخرون : مصّرت الكوفة بعد البصرة بسنتين ، وقالوا بسنة . والسبب في بنائها ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب كانت تفد عليه وفود العرب بعد الفتوح وألوانهم شاحبة ، وسحناتهم متغيرة ، فكتب الى سعد بن ابي وقاص : ان العرب لا يصلحها من البلدان الا ما اصلح الشاة والبعير ، فلا تجعل بيني وبينهم بحراً . وعليك بالريف ، فوقع اختيار سعد على ارض يقال لها قبل الاسلام سورستان فبنى فيها الكوفة ، وكان اول ما خط فيها المسجد ودار الامارة وقد نزل الكوفة في أوائل الفتح الاسلامي جماعة من نزار واهل اليمن ، اما اهل اليمن فكانت خططهم في الجانب الشرقي من البلد وهو خير الجانبين ، واما نزار فقد كانت خططهم في الجانب الغربي من وراء الغابات ، اني افتكم من اليوم الى منازل اهل اليمن في الكوفة فسيمر بكم ان المتنبي ينتسب الى حي يمان فكأن اهل اليمن الذين نزلوا الكوفة في اول امرها في الاسلام أحبوا ان يسموا محلتهم فيها كندة احياءً لذكر كندة ابي حي من اليمن ، والمتنبي ولد في هذه المحلة حتى قال قوم بدئ الشعر بكندة ، بعنون امرأ القيس ، وختم بكندة بعنون ابا الطيب .

هذا موقع الكوفة وهذه اوليتها ، افلا يليق بنا ان نسمع وصفها ، ونعرف طبيعتها وللشاعر ارتباط بطبيعة وطنه ، وصف الكوفة محمد بن عمير العطاردي لعبد الملك بن مروان فقال : الكوفة سفلت عن الشام ووبائها وارتفعت عن البصرة وحرها فهي بربة مريعة اذا اتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور واذا هبت الجنوب جاءتنا ريح السواد ووردة وياسمينه واترنجه ، ماؤنا عذب وعيشنا خصب .

ووصفها الحجاج فقال : واما الكوفة فبكر عاطل عنطاء لا حلي لها ولا زينة .

وكان علي اذا اشرف على الكوفة يقول : يا حبذا مقالنا بالكوفة — ارض سواء سهلة معروفة — تعرفنا جمالها العلوفة [1] .

والظاهر ان الكوفة صبغت في بدء امرها بصبغة دينية فكان سلمان الفارسي يقول: اهل الكوفة اهل الله ، وهي قبة الاسلام يحن اليها كل مؤمن، وكان علي يقول : الكوفة كنز الايمان وجمة الاسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث شاء والذي نفسي بيده لينصرن الله باهلها في شرق الارض وغربها كاانتصر بالحجاز .

وقال سفيان بن عيينة : خذوا المناسك عن اهل مكة وخذوا القراءة عن اهل المدينة وخذوا الحلال والحرام عن اهل الكوفة .

هذه صورة الكوفة التي عرضوها علينا ، ولكنها سرعان ماعركت بالنوازل وركبت بالزلازل كما قال علي ، ولقد اشبه المتنبي امه الكوفة فما ظلم فما كان الا ابن النوازل ولا كان الا صنو الزلازل ، مارسته ومارسها وطاعنته وطاعنها فما هو ملّها ولا هي ملّته .

نعم هذا هو وصف الكوفة على قدر ماتيسر ، ولقد نشأ في الكوفة من الشعراء مطيع ابن اياس وحماد عجرد وابو دلامة ودعبل الخزاعي وابو العتاهية وغيرهم حتى قال بعضهم: الشعر ميراث في الكوفة ، ولما استنفر علي اهل الكوفة لقتال اهل الشام ولم ينفروا معه خطب فيهم فقال : اذا تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقاً عزين تضربون الامثال وتناشدون الاشعار ، تربت ايديكم وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، واصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها وشغلتموها بالاباطيل والاضاليل » فالظاهر ان الشعر كان يجد في خد العذراء تربة صالحة وهواءً صالحاً حتى زعم حماد ان النعمان بن المنذر امر فنسخت له اشعار العرب في الكرار يس ثم دفنها في قصره الابيض بالكوفة فلما وثب المختار بن ابي عبيد الثقفي بالكوفة سنة ٦٦ في سلطان ابن الزبير قيل له : ان تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الاشعار قال : فمن ثم اهل الكوفة أعلم بالشعر من اهل البصرة .

وفي الكوفة نشأ اكابر النحاة معاذ الهراء والكسائي والفراء وابن السكيت فكان الشذوذ من طبع الكوفيين .

---

(١) هكذا ورد الضمير في تعرفنا والمقام يقتضي رجوعه الى الجمال .

وفي الكوفة نشأ اكابر علماء اللغة والادب كحماد الراوية والمفضل الضبي وابي عمرو الشيباني وابن الاعرابي وابن قتيبة وفيها نشأ كثير من الحفاظ .

من كل ماتقدم يتبين لكم ان الكوفة مدينة الشعر ومدينة النحو والشذوذ ومدينة اللغة ومدينة الدين . فقد ظهر فيها شيء من هذا كله وظهر على شيخنا ابي الطيب شيء من هذه الآثار باجمعها فالشعر من طبع المتنبي والشذوذ من سجيته واللغة مختمرة فيه الا الدين فاني لا اجد في شعره نزعة اليه ، وانما لما اتصل بسيف الدولة ووصف غزواته في بلاد الروم وردت في شعره أبيات قلائل فيها شيء من النزعة الاسلامية اقتضتها طبيعة الحرب بين الروم والمسلمين .

ولست أعني بهذا ان الكوفة هي التي خلقت الشعر في طبع المتنبي او طبعته على الشذوذ ولو كان الامر كذلك لوجب ان يكون شعراء الكوفة كلهم مثل المتنبي وانما المتنبي مطبوع على الشعر ومطبوع على الشذوذ . واذا كان للبيئة اثر في المرء فقد يجوز ان يكون للكوفة بعض الاثر في نمو هذا الطبع وليس في هذا شيء من المبالغة على ان هذا المقام انما هو مقام الكلام على وصف الكوفة وطن ابي الطيب لاغير ، فلا أخرج عن هذا الكلام .

هذا آخر ما أحببت ان اذكره لكم مما يتعلق بالكوفة ، ولقد وددت لو ان لخد العذراء اثراً في شعر المتنبي أبلغ من الاثر الذي وجدته فليتني لم أعرف الكوفة الا من شعر ابي الطيب . واذا الشاعر لم يتغن بوطنه فمن الذي يتغنى به ؟ ان النفوس لتحركها محبة الألوان والأشكال اي أشكال هذا الوطن الكريم والوانه البراقة الوضاءة فمتى استطعنا ان نتغنى بجبالنا واوديتنا وبمروجنا وسهولنا ومتى استطعنا ان نتغنى بهذا النسيم العليل الذي نشقه اباؤنا وأجدادنا ، و بهذا الماء العذب الذي وردوا عليه وصدروا عنه و بهذه الغوطة الغناء مجلى الطبيعة ، ومغنى الانس عرفنا حينئذ قيمة الوطنية النقية الهادئة التي لا تقوى على قتلها العصور والأحقاب فما تكر عليها الايام الا ازدادت رسوخاً في القلوب وتمكناً من الصدور .

ان شيخنا ابا الطيب لم يبر وطنه المبرة التي نريدها في هذا العصر فكأن فكرة الوطن حديثة ، ولكنها غير حديثة الا ان شعراءنا لم يعالجوها في القديم معالجتنا لها في هذه الايام . لم يترك المتنبي في شعره اثراً للكوفة . ولكنه تغنى ببعض منازل قريبة من وطنه

فتارة كنت أجده شديد الحنين الى كندة محلته بالكوفة حتى جعل هذه المحلة بمنزلة والدته فقال لعلي بن ابراهيم التنوخي :

امنسي السكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيعا

وتارة كنت اجده لا يوحشه وطنه اذا شطت به النوى فهو آفاق يضرب في البلاد مكتسباً فقد قال

وما بلد الانسان غير الموافق ولا اهله الادنون غير الاصادق

نعم مرة كان يستوحش فيشتاق الى وطنه والى اهله من مصر :

بما التعلل لا اهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

***

أحن الى اهلي واهوى لقاءهم واين من المشتاق عنقاء مغرب

ومرة كان يستغني عن هذا الوطن فيطيب له المقام بكل ارض يأمل فيها ضيعة او ولاية ، فقد قال لكافور في مصر :

اذا لم تنط بي ضيعة او ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب

وقال له :

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

والخلاصة لم يتغن ابو الطيب بالتربة التي أنبتته وبالهواء الذي شمه وبالظلال التي أظلته واذا حنّ في بعض الأحيان الى شيء من هذا كله وذكر بعض أماكن قريبة من وطنه اختصر الكلام ولم يطوله :

وليلاً توسدنا الثوية تحته كأن ثراها عنبر في المرافق

بلاد اذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبنه للمخانق

والثوية موضع على مقربة من الكوفة ٠

وكم دون الثوية من حزين يقول له قدومي : ذا بذا كا

على ان المتنبي كان جواب آفاق قد دحا الارض فلم تشتد الفته لوطنه ٠

كأني دحوت الارض من خبرتي بها كأن بني الاسكندر السد من عزمي

فكان اذا نزل منزلاً وكرّمه اهل هذا المنزل وبجلوه ٠ استطابه فلم يحن الى ربعه ٠

دمشق : في ١٨ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

المحاضرة الحادية عشرة

نسب المتنبي
— ٣ —

اتصاله بقبائل اليمن — تأثير الدم — فخره بقومه — فهم الناس لشعره — اهله

استوقفتكم وانا اطوف بكم في « خد العذراء » على الجانب الشرقي من هذا البلد الطيب ، مهبط الشعر والعبقرية ، وذكرت لكم ان اهل اليمن الذين نزلوا الكوفة في اول تمصيرها كانت خططهم ومنازلهم في هذا الجانب ، وهو خير الجانبين ، والمتنبي ولد في كندة وهي محلة في الكوفة ، فكأن اليمانيين الذين استوطنوا الكوفة ، احبوا ان يحيوا فيها اسماء بطونهم ، فسموا محلة كندة ، وكندة ابو حي من اليمن ، وسموا محلة ثانية السبيع ، والسبيع بن سبع ابو بطن من همدان ، وهمدان قبيلة باليمن ، وقد جاء ذكر المحلتين في شعر ابي الطيب ، ورويت لكم البيت الذي تضمنها :

امنسي السكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيعا

فلننظر هل للمتنبي اتصال بهذه القبائل اليمانية وما هو نسب المتنبي .

لست ادري كيف يؤلفون في مثل هذا العصر ، عصر التنقيب والاستقصاء كتاباً يبحث بحذافيره عن حياة المتنبي وخلقه وشعره واسلوبه ، من دون ان يهتموا بالبحث عن اصل المتنبي ، سواء أكان هذا الاصل ظاهراً بعض الظهور ام كان خفياً بعض الخفاء ، لست ادري كيف يفهمون كلام الذي يقول :

وفؤادي من الملوك وان كان لساني يرى من الشعراء

من دون ان يعتنوا بالسؤال عن آباء الذي يحمل هذا الفؤاد ، فاذا خفي علينا اصل المتنبي ، خفي علينا ادراك روحه الذي يترقرق في شعره ، واذا نحن لم نفهم روح الشاعر فما الذي نفهمه من شعره .

اجمع الرواة على ان شيخنا ابا الطيب اسمه احمد ، وقد صرح باسمه في شعره .

تحمل المسك عن غدائرها الريح ونفتر عن شنيب برود
جمعت بين جسم احمد والسقم وبين الجفون التسهيد

واجمعوا على ان اباه اسمه الحسين ، فالمتنبي احمد بن الحسين ، ولكنهم اختلفوا في اسماء اجداده ، فقال بعضهم : هو احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد ، وقال آخرون : هو احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار ، ولئن اضطربوا في اسماء اجداده فقد اطبقوا على ان ابا المتنبي جعفي . قال صاحب طبقات الادباء : وذكر القاضي ابوالحسن ابن ام شيبان الهاشمي الكوفي ان عيدان كان جعفياً صحيح النسب . وعيدان السقاء لقب والد المتنبي ، فقد هدأ بالنا من ناحية نسب ابيه ، فلننظر اليه من ناحية نسب امه فلنستعن بطبقات الادباء فقد جاء فيه :

قال ابو الحسن : وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا اشك فيها وكانت جارتنا وكانت من صلحاء النساء الكوفيات ، من هنا يتبين لكم ان والد المتنبي جعفي وان جدته همدانية ، فانكشفت لنا ناحية من نسبه نستطيع الاستعانة بها فللمتنبي اصل من الاصول ، فلندقق هذا الاصل على قدر الامكان .

قلت : نزل الكوفة في اول امرها جماعة من اهل اليمن ومن هذه الجماعة همدان ومذحج ، وبهمدان ومذحج استعان زياد وهو امير البصرة والكوفة على القبض على حجر ابن عدي صاحب فتنة الكوفة في ايام زياد وعلى شباب همدان ومذحج في الكوفة كان يثني زياد فاذا علمتم ان بين السنة التي مصّرت فيها الكوفة وهي سنة ١٧ وبين السنة التي ولد فيها المتنبي وهي سنة ٣٠٢ ثلاثة قرون على التقريب واذا احطتم من جهة ثانية باسماء ثلاثة من اجداد المتنبي تحقق عندكم ان اصل المتنبي من هذه القبائل اليمانية التي رمت اظلالها على الكوفة في اول بنائها .

والد المتنبي جعفي وجدته همدانية فالمتنبي يماني الاصل من الناحيتين من ناحية ابيه ومن ناحية امه وفي فضائل بيوتات اليمن يقول عبد الله بن عباس لبعض اليمانية : لكم من السماء نجمها ومن الكعبة ركنها ومن الشرف صميمه .

فلننظر الى المتنبي من ناحية ابيه . كان الحسين جعفياً صحيح النسب وجعفي على وزن كرمي من بطون سعد العشيرة وانما سمي سعد العشيرة لانه لم يمت حتى ركب

معه من ولده وولد ولده ثلثمائة رجل وسعد العشيرة من قبائل مذحج وببيان مذحج اقر ابو عبيدة فقال : ولسان العرب مذحج ٠

ولننظر اليه من ناحية جدته ٠ كانت جدته همدانية صحيحة النسب ، و بفروسية همدان اعترف ابن الكلبي فقال : وهمدان احلاس الخيل وفي همدان يقول الشاعر :

ناديت همدان والابواب مغلقة ومثل همدان سنى فتحة البـاب
كالهندواني لم تفلل مضـاربه وجـه جميل وقلب غـير وجاب

وفيهم يقول علي :

فلو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ومن همدان اعشى همدان وهو شاعر كوفي من شعراء الدولة الاموية وكان النعمان بن بشير عامل حمص يقول فيه : هذا شاعر اليمن ولسانها ٠—

فالفروسية والصلاح من جملة اخلاق القبائل التي ينتسب اليها المتنبي والبيان في هذه القبائل ٠

اذا احطنا بهذا كله هان علينا ان نفهم كلام الذي يقول وفؤادي من الملوك ٠٠٠ فان الذي ينتسب الى قبائل فيها شيء لا بل اشياء من الفروسية والصلاح وان الذي ينتسب الى جدة صالحة موصوفة بالحزم لا يستغرب فخره ان فخر ٠

نعم اذا احطنا بهذا كله هان علينا ان ندرك روح المتنبي واسرار خلقه في الآتي وليس من الضروري ان تكون جدة المتنبي صالحة او ان يكون جده او خاله او عمه فارساً من الفرسان ، حتى يتوارث المتنبي عنهم الصفات وانما يكفي ابا الطيب ان يكون احد اهل بيته في القديم قد جمع شيئاً من هذه الصفات حتى ينتقل اليه هذا الشيء على سبيل الميراث فالمرء يتوارث محاسن الصفات ومقابحها عن اهله في قربهم منه وبعدهم عنه فقد يتوارث عن ابيه او خاله او عمه وما بينه وبين واحد منهم الا قليل من الزمن وقد يتوارث عن احد اقاربه في قديم الدهر مهما كان مدى الايام بينه وبين هؤلاء الاقارب متراخياً فالعرق نزاع ٠

قرأت مقالاً في مجلة بباريز لعالم من العلماء خلاصتها اننا لو حوّطنا في هذه الايام بلاد الترك بعد ان تغيرت سحناتهم عن سحناتهم القديمة ومنعنا الامم عن مخالطتهم وحصر

الترك في بلادهم فلم يصهروا الى احد من غيرهم ولم يصهر غيرهم الى احد منهم ودام هذا الحصر الف سنة لرجعت هيآتهم بعد الف سنة الى هيآت الترك القدماء المعروفين بلونهم الخاص وبتركيبهم الخاص وبصفاتهم الخاصة ٠

من هذا يسهل عليكم ان تعتقدوا ان المتنبي انتقلت اليه صفاته التي سوف تنكشف لكم في كلامي على اخلاقه من احد اقاربه في الحديث او في القديم ولا عجب في هذا مادام ابوه جعفياً ومادامت جدته همدانية وفي جعفي وفي همدان صفات تشبه صفات ابي الطيب ٠

* * *

للدم تأثير في العبقريات واظن انكم لا تزالون تذكرون مذهب (تين) في النقد فقد أراد (تين) ان يجعل للجنس وللبيئة وللزمن تأثيراً في القرائح والامزجة فمن البشر على مايقول من يجمع صفات الشجاعة والفطنة ومنهم من يُعرف بالبلاهة وقصر المدارك ومنهم من يعلو في التصورات والمخترعات ومنهم من يسف ومنهم من يختص بطائفة من الاعمال وتقوى فيهم طائفة من الغرائز كما ان من الكلاب مايصلح للعدو والركض ومنها ما يصلح للصيد ومنها ما يصلح لحراسة الدور والمواشي ٠

وقد ذكرت لكم ان (تين) قد أدخل عناصر حديثة في دراسة الآثار الادبية الا ان مذهبه لايخلو من شيء من الافراط ، وقد أشار الاستاذ (بروتنير) في اثناء كلامه على هذا المذهب الى ناحية الافراط ففي نظر (تين) ان بعض أجناس البشر يصلحون لشيء لاتصلح له اجناس غيرها فقال (بروتنير) لو صح هذا النظر على الاطلاق لامتنع علم ماوراء الطبيعة في الشعوب السامية مثلاً لان هذا العلم مشهور في الشعوب الآرية في الهند وعلى الرغم من هذه الشهرة فقد كان اكبر عالم في علم ماوراء الطبيعة في العالم كله رجلاً سامياً من بلاد البرتغال وهو سبينوزا ٠

ولئن كان مذهب (تين) فيه شيء من الافراط فهو لايخلو من شيء من الحقائق ٠ فان للدم تأثيراً في العبقريات ٠ فقد تشتهر أجناس من البشر بامور لا يشتهر بها غيرها ٠ وقد تعرف قبائل باشياء لايعرف بها غيرها ٠ كانوا يقولون مثلاً : جرأة بني الحرث ٠ فتك مراد ٠ بأس زبيد ٠ كيد جعفي ٠ مغار طيء الى غير ذلك ٠ وقد يتوارث اواخر القبيلة المحاسن والمساويء عن اوائلها ٠ فالمتنبيء انتقلت اليه صفاته من احد أقاربه في

جعفي او في همدان على سبيل الارث . ولا يمكن ان يجمع المتنبي صفاته المعروفة من دون ان تكون مجموعة في احد أقاربه .

من كل ما تقدم استخلص ان ابا الطيب وقد صح نسبه في جعفي وفي همدان ولد وفي طبعه اشياء متوارثة عن اهله في هاتين القبيلتين . فهو لم تحدثه نفسه بهذه الاماني البعيدة من دون ان يكون منتسباً الى اهل قد حدثتهم انفسهم بمثل هذه الاماني . واذا لم نشأ ان نفهم هذا كله فكأننا لا نشأ ان نفهم روح ابي الطيب .

فالشيخ ابو الطيب يماني الاصل من ناحية ابيه ، ومن ناحية أمه فهو عريق في يمانيته وفي عروبيته . وسأتكلم في الاسبوع الآتي بكلام على تغنيه بعروبيته . ومن الغريب ان المتقدمين من المؤلفين وفي جملتهم ابن خلكان وصاحب طبقات الادباء والثعالبي وصاحب الصبح المنبي اقتصروا في كلامهم على ابي الطيب على ان قالوا في ابيه انه جعفي ، وفي جدته انها همدانية من دون ان يبحثوا عن أسرار هذه الصفات التي اجتمعت فيه . ومنهم من لم يشر الى أصله ، وأغرب من هذا كله ان صاحب كتاب ابي الطيب المتنبي الذي نشر كتابه في مصر من تسع سنين ، قد انبت ابا الطيب في اسوإ المنابت ، ورده الى ارذل الاصول ، ولم يكتف بهذا كله فذهب مذهباً أبعد ، فقد ذهب الى ان ابا الطيب نفسه كان يعترف في بعض شعره بوضاعة نسبه وانحطاط اصله ومن هذا الشعر قوله في رثاء جدته :

ولو لم تكوني بنت اكرم والد لكان اباك الضخم كونك لي أمّا

فظن ان ابا الطيب ينفي عن جدته كرم والدها ، وعجيب طراز هذا الفهم ، فابو الطيب يقول لجدته في هذا البيت : لو لم يأتك الكرم من نواحي ابيك لاتاك من ناحيتي ، فكأنه يقول : انت بنت اكرم والد ، وانت أم اكرم ولد ، فقد جمعت اليك الكرم من ناحية ابيك ومن ناحية ابنك ، ولعمري كيف ينفي الكرم عن قومه من يقول في القصيدة نفسها :

واني لمن قوم كأن نفوسهم بها انف ان تسكن اللحم والعظما

فاذا كان القوم الذين تأنف نفوسهم ان تسكن اللحم والعظم لا يملكون من كرم الاعراق شيئاً فمن الذي يملك هذا الكرم ? أفيملكه اللاصقون بلحومهم اللازقون بعظامهم الذين لم يحلقوا في جو اعلى من جو الحيوانية .

وكما انه اساء الى ابي الطيب في فهم هذا البيت فقد اساء اليه في فهم ابيات غيره من جملتها قوله :

ولست بقانع من كل فضل بان أعزى الى جد همام

فظن ان اباالطيب ينفي عن جده عظيم همته والمتنبي يقول ولا يحتاج قوله الى دليل لست أقنع من الفضل بان اكون منسوباً الى جد عظيم الهمة وانما أمنيتي ان اجمع شيئاً من الفضل بنفسي فأبوالطيب يعتقد انه فاضل وابن فاضل .

من جملة هذه الابيات التي ساء فهمهم لها قوله :

فخر الفتى بالنفس والأفعال من قبله بالعم والأخوال

او قوله لباحث عنه :

انا ابن من بعضه يفوق ابا الباحث والنجل بعض من نجله
انما يذكر الجدود لهم من نفروه وانفدوا حيله

فلا يستنبط من هذا ان المتنبي لايفخر بعمومته وخؤولته وانما المتنبيء يرجع في هذه الابيات الى شنشنته ، فهو يرى ان الفخر بالنفس و بالفعل أعظم من الفخر بالعم و بالخال وهذا لاينفي عن ابي الطيب فخره بالعمومة والخؤولة وانما يؤيده فكأنما المتنبيء يريد ان يجمع الى تالد الفخر طريفه وهذا أبعد مجالات الهمة .

ولما قال :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد

لما قال هذا ظنوا انه يعتقد ان قومه لا شرف لهم وانما الذي عناه بقوله هذا ان قومه شرفاء وانهم فخر العرب كلها ولكنه اشرف من قومه .

ما رميت في كلامي هذا الى الدفاع عن منبت المتنبي وعن اخلاقه وانما اردت ان انبه على خطإ وقعوا فيه مما يتعلق بفهم شعر المتنبي وما اظن انهم انبتوا اباالطيب هذا المنبت الا لان والده كان سقاء في الكوفة حتى قالوا :

اي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المحيا

فلو كان الحسين الجعفي من اصحاب النعم افكان الناس ينظرون الى المتنبي وابوه غني نظرهم اليه وابوه سقاء ، فالمال وحده هو الذي حرّف الانظار ، ومتى كان المال مقياس الاصول وكرم الاعراق ، افلا نجد في ايامنا من ابنـاء سلاطين آل عثمان ومن حاشية قياصرة الروس الذين شتتت السياسات شملهم في البلاد من يشتغل باحقر الصناعات حتى لا يموت من الجوع ، افلا نجد من اصحاب النعم رجالا لا يعلم الا الله مقادير اخلاقهم الفاسدة ، انا لا اريد ان اقول ان المتنبي نشأ الملك في بيته قديماً ولكني لا اعتقد انه وضيع ولا اريد ان اعتقد انه كان يعترف بوضاعته .

اما وقد فرغت من الكلام على نسب ابي الطيب . فلننظر الى اهله في عصره وايامه فقد اشار في شعره الى امه والى جدته .

اما جدته فقد كان غائباً عنها في اقطار الشام ، وطالت غيبته هـذه ، وقد ارسلت اليه كتاباً تشكو فيه شوقها اليه . وطول غيبته عنها . فتوجه نحو العراق ، ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك ، فانحدر الى بغداد وكانت جدته قد يئست منه ، فكتب اليها كتاباً يسألهـا ان تسير اليه فقبّلت كتابه وحمت لوقتها سروراً به وغلب الفرح على قلبها فقتلها فرثاها بقصيدة ملأها من رقة العاطفة وصدقها سأتكلم فيها في اثناء كلامي على شعره وفي هذه القصيدة ابيات تدل على شدة محبة جدته اياه . وعلى شدة محبته اياها فمن قوله في حبها اياه :

لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما

ومن قوله في حبه اياها :

احن الى الكأس التي شربت بها واهوى لمثواها التراب وما ضما

ولا يبعد ان جدته كانت تقرأ فكانت تتعجب من خط كتابه اليها ومن لفظه :

تعجب من خطي ولفظي كأنما ترى بحروف السطر اغربة عصما

وتلثمه حتى أصار مداده محاجر عينيها وانيابها سحما

وقد وصفها بالحزم فقال :

فوا أسفا الا اكب مقبلا لرأسك والصدر الذي ملئا حزما

واني أعتقد ان ابا الطيب قد توارث عن جدته هذه بعض صفاتها من جملتها هذا الحزم .

واما أمه فلما اعتقل وطال اعتقاله كتب الى الوالي ابياتاً أشار فيها اليها :

بيدي ايها الامير الاريب لا لشيء الا لاني غريب
او لام لهـا اذا ذكرتني دم قلب في دمع عين يذوب

وفي هذا البيت عاطفة الامومة والبنوة ولما كان في ارجان عند ابن العميد عمل شعراً في ابن العميد قال له في جملته :

يا ليت باكية شجاني دمعها نظرت اليك كما نظرت فتعذرا

ولكننا لا نعرف هذه الباكية التي بكت على فراق ابي الطيب وأحزنه دمعها .

وكان له ابن اسمه محمد صحبه الى بلاد فارس و يظهر ان محمداً كان شاعراً . نقل صاحب الصبح المنبي عن ياقوت ان المتنبي كان جالساً بواسط فدخل عليه رجل وقال : نريد ان تجيز لنا قول الشاعر :

زارنا في الظلام يطلب ستراً فافتضحنا بنوره في الظلام

فرفع ابو الطيب رأسه وكان محمد واقفاً بين يديه وقال :

يا محمد قد جاءك بالشمال فأته باليمين فقال محمد ارتجالاً :

فالتجأنا الى حنادس شعر سترتنـا عن أعين اللوام

وقد قرأ الشيخ اليازجي انه وجدت له في احدى نسخ الديوان أبيات بعد فراره من مصر يظهر فيها شوقه الى ابنه محمد والى شيخ يقال له الحسين ، من هذه الابيات :

لولا محمد بل لولا الحسين لما رأيت رأيي بوهن العزم مختلطا
هذا هواي وذا ابني خط مسكن ذا بمصر والشام التي دائماً خططا

والابيات كلها ثمانية وفيها اشارة الى هرب ابي الطيب من مصر ولكنها لا تخلو من تحريف اذا صحت اما محمد الوارد اسمه فيها فقد يجوز ان يكون محرفاً عن محسد واما الحسين فقد يجوز ان يكون شيخاً له وعلى كل الرواية غامضة .

هذا كل ما حققته من نسب المتنبي ومن اهله في عصره وايامه ، واما ما يتعلق بزوجته وبقية اهله فهو خاف علينا . دمشق : في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٩٣٠

جامع التواريخ

« او نشوار المحاضرة المسمى باخبار المذاكرة »

— ٥ —

قال ابو الحسين فكنا في بعض الليالي بحضرة ابن الفرات وهو يعمل وانا مع ابي والمجلس حافل . حتى قرأ كتاباً من صاحب بريد الموصل يذكر فيه ان ابا احمد هذا قد بسط (١) في الاعمال واظهر من المروءة امراً عظيما وركب باللبود الطاهرية وبعدة حجاب وغلمان حتى انه يسير معهم في موكب وانه ورد معه من الزواريق (٢) والجمال التي تحمل اثقاله شيء كثير . وان هذا مالا يحتمله رزقه وانما هو من الاصل . فرمى بالكتاب الى ابي القاسم زنجي الباقي الى الآن . وكان اذ ذاك حدثاً يخط بحضرته . وقال له وقع عليه ليكتب اليه ويعرف انه نفع الرجل من حيث تعمد ضره . لانه اذا كان في مثل هذا الصقع عامل وجيه جليل كثير التجمل والهيبة والمروءة صلح ان يبادر به السلطان الى مصر واجناد الشام متى انكر على عمالها امراً . لان هذه النواحي لا تصلح الا لمن كان حسن التجمل والمروءة كثير النعمة . ثم أقبل على من في مجلسه فقال حدثنا ابو القاسم عبيد الله بن سليمان ان المعتضد رفع اليه خبر رقعة النوشجاني صاحب بريده يذكر فيها : ان الاخبار

«١» م . ع : لعله تبسط او بسط يده . «٢» م . ع : لم نجد الزواريق ولعلها الزوارق جمع زورق وهو القارب .

ذاعت ببغداد بان حامد بن العباس لما دخل فارس متقلداً فيها لعمالتها دخل ومعه عدد كثير عظيم من الغلمان والحاشية قال فتحيرت لما دفع الكتاب اليّ وخفت ان يكون قد انكر ذلك ويقع له ان هذا اصطلام (١) المال . ودخلني فزع منه فلم ادر باي شيء أجيب . فقال لي : يا ابا القاسم وقد كان كناه اول ما استوزره . وكان يتكنى على الناس الا على بدر وصاحب خراسان . وكان هو وبدر يتكاتبان بالكاف والدعاء بينهما سواء . قال لي المعتضد يا ابا القاسم قرأت الكتاب . فقلت نعم . فقال قد سرني ما ذاع من مروءة حامد وهيبته بذلك في نفوس الرعية . فكم رزقه ؟ فقلت الفان وخمسمائة دينار في الشهر . فقال اجعلها ثلاثة آلاف ليستعين بها على مروءته . قال ثم قال ابو الحسن بن الفرات عقيب هذا وقد فعل المعتضد قريباً من هذا مع ابي العباس احمد بن بسطام . فان المعتضد طالبه بعجز ضمانه واسط وحبسه في دار ابن طاهر وألزم سبعين الف دينار يوءديها . فكان يصححها (٢) على جميل وهو يوكل به من قبل المعتضد في دار ابن طاهر . وأصحاب عبيدالله يطالبونه ويقتضون المال ، فكتب النوشجاني صاحب الخبر فيه انه كان يفرق في ايام ولايته في كل شهر عشرين كرّاً حنطة ودقيقاً على حاشيته وعلى المستورين والفقراء . وانه فرق في هذا الشهر الاكرار على رسمه ولم يقطعها وهو مع ذلك يماطل باداء ما عليه . فلما دخل عبيد الله على

«١» م ، ع : اي استئصال . «٢» م . ع : كذا في الاصل وفي التاج صحح الحساب أصلحه .

المعتضد اراد الرقعة . فسكت عبيدالله فقال له المعتضد : قد سرني هذا لان ابن بسطام رجل مشهور بعظم المروءة وكثرة المعروف وقد جمّلنا بما قد فعله حين لم يظهر ان ما قد الزمناه أحوجه الى الزوال عن عادته في المعروف فكم بقي عليه قال بضعة عشر الف دينار فقال اسقطها عنه ورده الى عمله وعرّفه إحمادي ما قد فعله . فامتثل عبيد الله ذلك .

حدثني ابو الحسين قال سمعت ابا عبد الله احمد بن محمد بن بدر بن الاصبغ يحدث ابي قال كنت انصرف مع سليمان بن وهب لقرابة كانت بيننا من جهة النساء وكانت حالي بصحبته في نهاية السعة حتى انه كان يطحن الزعفران في داري كما يطحن الناس الدقيق لكثرة ما كان يجيئنا من الجبل ونستعمله ونهديه . فولي سليمان ديوان الخراج فكنت احد عماله فيه فوقعت بيني وبين ابنه عبيد الله نفرة فلزمت منزلي اياماً فما شعرت الا برقعة الحسن ابن مخلد يستدعيني وهو يتولى ديوان الضياع وكانت بينهما مماظّة (١) فمضيت اليه فقال لي انت معطل ولا تصير اليّ وقد انفصل ما بينك وبين ابي ايوب فقلت يا سيدي كيف ينفصل ما بيننا مع القرابة ولكن بيننا عتب . فقال دع ذا عنك انت معطل وماتبرح. قال واراد اجتذابي من جنبته وكان الناس اذذاك يتغايرون على الكفاة فقلدني اعمال السيب (٢) الاسفل وقسين (٣) وجبيلا (٤)

«١» م،ع : منازعة . «٢» م،ع : السيب كورة من سواد الكوفة وهما سيبان اعلى واسفل . «٣» م،ع : قسين كورة من نواحي الكوفة . «٤» م،ع : جبيل اسم لاماكن كثيرة منها جبل قرب فيد وفيد بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة ولعلها محرفة عن جبل (بفتح الجيم وضم الباء المشددة)وهي بلدة بين النعمانية وواسط .

وكانت تجري في ديوانه فقبلتها وخرجت اليها وكان الارز قدقارب الادراك فقدرته وعدت الى سر ّمن رأى لاشرح له حال التقـدير واستأمره في العمل فلما بصر بي قال قد قدمت على فاقة مني اليك قد تأذيت بالفلاحين واريد لهم عشرة آلاف دينار سلفاً لما يقيمونه من جبل ياسورين (١) من الثلج فقلت له الارز خافور (٢) وما بلغ الى ان يجرز فقـال لا بد من ان تستفرغ جهدك وحيلتك في هذا حتى تخفف عني . وكان اول خدمة فاحتجت ان اضطرب (٣) لاصنع (٤) نفسي عنده فخرجت مفكراً فيما اعمله فلا قبالي لقيني رجل من وجوه التجار في الطريق وكانت بيننا مودة وكان موسراً وكان جميع متجره غلات السلطان فبدأني على تركي مبايعته شيئاً بالسلف من غلات عملي فاجتذبته الى منزلي وقلت البيت الك فاحتبني (٥) ولو رأيتك ما عدات عنك . قال فاقام عندي يومه ولم ازل حتى بعته حساب الكر الارز المعدل بسبعة دنانير وكنت قد قدرت الحاصل فيه للسلطان ثلاثة آلاف كر معدل واستثنيت عليه في كل كر ديناراً وأخذت خطه بضمانه تعجيل عشرة آلاف دينار لمن يؤمر باداتها اليه ورحت الى دار الحسن بن مخلد فوجدته نائماً والناس مطرحون في داره. ثم دخلت اليه وشرحت له الصورة فسر ّ بها وأمر باحضار صاحب مجلس النفقات في الديوان وسلم الرقعة اليه وقال أحل الفلاحين على هذا التاجر. فلما خلا مجلسه تقدمت اليه وعرفته خبر الاستثناء واريته الخط وقلت

«١» م . ع : ياسورين موضع فوق الموصل يقال له البلد . «٢» م . ع : الخافور نبت كالزوان ولعله يريد ان الارز في حالته الحاضرة كالخافور . «٣» م ع : أكتسب .
«٤» م . ع : اي اجملها . «٥» لعله سقط : بك .

الى من اسلم المال اذا قبض فلم يجبني فالححت عليه فقال لي يا هذا انك صحبت قوماً لا مروءة لهم فتعودت منهم ان يطيعوا نفوسهم الى[١] مضايقة خدمهم في هذا القدر وما هو اقل[٢] منه واذا اخذت انا هذا المرفق فانت لم تخدمني وتتبعني خذ هذا واصلح به حالك ليبين عليك اثر خدمتك لي . فقبلت يده ورجله وعدت الى عملي واستخرجت المال ودبرت العمل . وحضر بعد مديدة النوروز وقد كنت مذ خرجت من حضرته سألت ثقات اخواني من التجار في الاسواق ان يجمعوا لي كل علق حسن غريب طريف مثمن[٣] من فرش ديباج مثقل وابي قلمون مذهب ووشي وديبقي[٤] مرتفع وقصب. قال فجمع لي من ذلك ما كان شراه[٥] خمسة آلاف دينار وهو يساوي اكثر منها بكثير ثم كتبت اليه رقعة في معنى الهدية وتضرعت في قبولها وتسببت لذلك وكتبت ثبت الهدية في اسفل الرقعة فكتب اليّ فيها لك اكرمك الله بنات وهن الى هذا احوج مني وقد قبلت ما يصلح قبوله انساً بك واسقاطاً للحشمة معك ورددت اليك الباقي ليكون لهن وكان الذي قبله ثوب قصب و منديل ديبقي وشستجه قصب .

حدثني ابو الحسين[٦] قال سمعت ابا عبدالله الباقطاني يقول : وحكى لي ابي ذلك قالا ان السجزية[٧] لما غلبوا على فارس اجلى قوم من اهل

«١» م . ع : الاظهر في مضايقة خدمهم الى ... «٢» بالاصل اوه . «٣» م . ع : ذي ثمن . «٤» م . ع : ثياب منسوبة الى ذبيق بلد بمصر . «٥» م . ع الشرى والشراء بمعنى واحد والقصر افصح . «٦» كتاب الوزراء لهلال ص٣٣٩ . «٧» م . ع : السجزية بالفتح والكسر نسبة الى سجستان اقليم بين خراسان والسند وكرمان .

الخراج عنها لسوء المعاملة ففضوا (١) خراجهم على الموجودين وسموا ذلك التكملة حتى يكمل به مال قانون فارس كان متقدماً (٢) ولم يزل الحال في ذلك تزيد تارة وتنقص أخرى الى ان افتتح ابو الحسن ابن الفرات في وزارته الاولى فارس على يد وصيف ومحمد بن جعفر العبرتائي (٣) ومن ضمه اليهما من القواد في سنة ٢٩٨ فأمر ابن الفرات باجراء الامر في التكملة على ما كان جارياً عليه وجرى الامر على ذلك في ايام محمد بن عبد الله الخاقاني وفعله علي بن عيسى في صدر وزارته الاولى فلما (٤) مضت منها مديدة صار الى مدينة السلام عبد الرحمن بن جعفر الشيرازي وطعن على محمد بن احمد بن ابي البغل وكان اذذاك يتقلد فارس وذكر انه إن ضمن العمل مكانه وفر حمله (٥) من المال فضمنه علي بن عيسى وانصرف ابن ابي البغل عما كان يتقلده امانةً وقلده اصبهان ثم أخر عبد الرحمن بن جعفر المال واحتج بان اهل فارس يتظلمون من التكملة ولا يلتزمونها. وكان ابو المنذر النعمن بن عبد الله يتقلد ديوان كور الاهواز مجموعة فكتب اليه علي بن عيسى ان يستخلف على اعماله وينفذ الى فارس فيطالب عبد الرحمن بما حل عليه من المال وينظر في هذه التكملة ويشرح امرها. وكتب الى احمد بن محمد بن رستم بان يصير من اصبهان الى فارس ليضمنها وكتب الى النعمن بحل ضمان

«١» م . ع يقال فض المال على القوم فرقه . «٢» م . ع كذا في الاصل ولعل اصله . وكان ، او الذي كان . «٣» م . ع عبرتى قرية قرب النهروان النسبة اليها عبرتي على ما يظهر من التاج ومعجم البلدان . «٤» بالاصل فما . «٥» م . ع لعله جملة .

عبد الرحمن وعقد البلد على ابن رستم فاستخرج النعمن التكملة ووجد قطعة منها على عبد الرحمن قد قدر ان يكسرها (١) فعسفه (٢) وباع قطعة من املاكه عليه حتى استوفى ذلك وكتب اليه علي بن عيسى يسأله عن التكملة وان يشرح له امرها وانه قد صار يستضعف (٣) قوم فيلزمون منها اكثر مما يجب عليهم ويرهب قوم فيسامحون بها وباكثرها فكتب اليه النعمن وابن رستم ان من طرائف ما يجري بفارس ان الناس يطالبون بالتكملة وهي ظلم صراح سنه الخوارج ويترك عليهم ما قد اوجبه الفقهاء وهو خراج الشجر لان فارس افتتحت عنوة وليس على الشجر بها خراج وارباب الشجر يذكرون ان المهدي اسقط عنهم خراج الشجر وليس لهم حجة بذلك الا طول مدة الرسم والاصل وجوب الخراج على الشجر فتسامع اهل البلدان بالخبر فتبادر اجلاؤهم الى حضرة علي بن عيسى من فارس فدخلوا مجلسه المظالم وفي اكمامهم حنطة محرقة فلما تظلموا قالوا له تمنع من اطلاق غلاتنا وتعتقل علينا في الكناديج (٤) الى ان تعفن وتصير هكذا ورموا بالحنطة المحرقة من اكمامهم حتى نبيع شعورنا (٥) ونؤدي التكملة الباطلة حتى تطلق غلاتنا وقد احترقت هكذا ورمى قوم منهم من اكمامهم بتين يابس وخوخ مقدد ولوز وفستق وبندق وغبيراء (٦) ونبق وبلوط وقالوا

«١» م . ع كذا في الاصل ولعله من اكتسر بمعنى اقتطع . «٢» م ، ع اي ظلمه .
«٣» بالاصل : يستصعب قوم فيلتزمون ورواية هلال اصح . «٤» م ، ع جمع كندوج الخزانة الصغيرة والخلية . «٥» عند هلال نفوسنا وشعور نسائنا . «٦» م ، ع الغبيراء شجرة لها ثمر يغبر ثم يحمر ويقال لهذا الثمر غبيراء ايضاً ويتخذ منه خمر يقال له غبيراء ايضاً .

هذا كله بلا خراج لقوم آخرين والبلد عنوة فاما تساوينا في الاحسان او الاستيفاء. فخاطب علي بن عيسى في ذلك الخليفة واستأذنه في جمع الفقهاء والقضاة ومشايخ الكتاب ووجوه العمال وجلة القواد ومناظرة القوم بحضرته وتقرير الامر على ما يوجب الحق عند الجماعة والعدل فأذن في ذلك فجمع الناس في دار المخرم التي كانت برسم الوزارة وصيرها علي بن عيسى ديواناً وطالت المناظرات واحتج من حضر من ارباب الشجر بفعل المهدي وقالوا قد استهلكت اموالنا في اثمان هذه الاملاك التي لاخراج عليها وان الزمت الخراج بطلت القيم وافتقرنا فافتى الفقهاء بوجوب الخراج وبطلان التكملة. وقال الكتاب ان كان المهدي شرط شرطاً لمصلحة في الحال او عناء[1] اعتناه اهل البلاد في جدب او غيرها[2] ثم زالت المصلحة زال الشرط. فقال علي بن عيسى للقوم اليس عندكم ان ما فعله المهدي واجب؟ قالوا بلى: قال لِمَ أليس لانه امام رأي رأياً ليس فيه مضرة؟ قالوا بلى قال: فإن امير المؤمنين وهو الامام الآن قد رأى ان الاحوط للمسلمين والاحفظ للكافة الزام الخراج للشجر وازالة التكملة فقام اليه الزجاج ووكيع القاضي فوصفاه وقرظاه. وقال الزجاج لقد حكمت بحكم لو كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حاضراً ما تجاوزه. وقال وكيع لقد فعل الوزير في هذا كفعل ابي بكر الصديق رضوان الله عليه في مطالبة اهل الردة بالزكاة وانهى علي بن

«١» م. ع: هكذا في الاصل ولعل اصله اوعناه اعتناء باهل البلاد الخ اي اهمه اعتناء بامرهم او الاصل عناءتعناه اي قاساه الخ. «٢» م، ع: الظاهر او غيره.

عيسى والقضاة ما جرى الى المقتدر في يوم الموكب واستأذنه في كتب كتاب باسقاط التكملة عاجلاً الى ان يتقرر امر الشجر فامر بكتب ذلك في الحال بحضرته واحضر قائداً من قواد الحضرة كان يخاف بدرا الكبير المعروف بالحمامي عامل المعاون بفارس وكرمان ليسلم اليه الكتاب ويطالب النعمن وابن رستم بامتثاله . وامر الخليفة باحضار دواة يكتب بها علي بن عيسى وكان رسم الوزراء اذا امروا بكتب كتاب بحضرة الخليفة ان تحضر لهم دواة لطيفة بسلسلة فيمسكها الوزير بيده اليسرى ويكتب منها باليمنى فاحضرت تلك الدواة لعلي بن عيسى وبدأ يكتب منها الكتاب بغير نسخة فلما رآه المقتدر وقد شق عليه ذلك امر باحضار دواته وان يقف بعض الخدم فيمسكها الى ان يكتب . فكان اول وزير اكرم بهذا ثم صار ذلك رسماً جارياً للوزراء بحضرته فكتب علي بن عيسى في ذلك كتاباً الى النعمن وخرجت نسخته الى الديوان واثبت فيه قال ابو الحسين فحفظناه ونحن احداث ونسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله جعفر الامام المقتدر بالله امير المومنين الى النعمن بن عبد الله : سلام عليك فان امير المومنين يحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ويسأله ان يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم كثيراً . اما بعد فان افضل الاعمال قدراً واجلها ذكراً واكملها اجراً ما كان للتقى جامعاً وللهدي تابعاً وللورى نافعاً (١) وللبلوى دافعاً وقد جعل

«١» بالاصل رافعاً .

الله عز وجل امير المؤمنين فيما استرعاه من امور المسلمين موثراً ما يرضيه صابراً (١) على ما يزلفه عنده ويحظيه ، وما توفيق امير المؤمنين الا بالله عليه يتوكل وبه يستعين . وقد عرفت حال السجزية والخرمية الذين تغلبوا على كور فارس وكرمان واحدثوا الجور والعدوان ، واظهروا العتو والطغيان ، وانتهكوا المحارم وارتكبوا المظالم ، حتى انفذ امير المؤمنين جيوشه اليهم وتورد بها عليهم ، فازالهم وابادهم وشتتهم وابارهم ، بعد حروب تواصلت ، ووقائع تتابعت ، احل الله بهم فيه سطوته ، وعجل لهم نقمته ، وجعلهم عبرة المعتبرين ، وعظة للمستمعين : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليم شديد » ولما محق الله امر هؤلاء الكفار ، وفرق عدداً وباشهم الفجار ، وجد امير المومنين افظع ما اخترعوه واشنع ما ابتدعوه في مدتهم التي طال امدها وعظم ضررها ، تكملة اجتبوها (٢) بكور فارس في سني غواياتهم لما طالبوا اهلها بالخراج على اوفر عبرتهم من غير اقتصاد به على الموجودين حتى فضوا عليهم خراج ما خرب من ضياع المفقودين فانكر امير المومنين ما استقر من هذا الرسم الذميم واكبر ما استمر به من الظلم العظيم ، ورأى صيانة دولته عن قبيح معرته وحراسة رعيته من عظيم مضرته مع كثرته ووفور جملته ، فرفع عن الرعية هذه التكملة رفعاً مشهوراً ، وقد جعل الله تعالى من سنها مدحوراً ، ونادى في المساجد الجامعة بازالتها وابطال جبايتها ليرتفع (٣) ذلك في الجمهور ويتمكن السكون اليه في الصدور وتحمد

«١» عند هلال مثابراً . «٢» م ، ع : الاجتباء افتعال من الجباية . «٣» عند هلال ليذيع

الله الكافة على ما تاحه لها من تعطف امير المؤمنين ورعايته وجميل حياطته لهم وعنايته، واكتب ما يكون منك في ذلك فان امير المؤمنين يتوكفه ويراعيه ويتشوفه ان شاء الله والسلام عليك ورحمه الله وبركاته . وكتب علي بن عيسى يوم النصف من رجب سنة ٣٠٣ .

وقد كان علي بن عيسى قبل ذلك بسنة نظر لاهل التكملة من جملتها في شيراز بعشرة آلاف درهم (١) قبل ان يخرج في السنة المقبلة خراج الشجر ثم تقرر امر الشجر على ان يؤخذ منه الخراج ويقارب اهله فيه على طسوق (٢) توضع لهم مخففة . وكان النعمن رفيقاً يقاربهم حتى عاد بازاء ما اسقط من مال الضمان في التكملة اكثره على التدريج . فكتب علي بن عيسى في امر الشجر كتاباً كنا نحفظه (٣) في الحداثة من الدار نسخته الى ابن رستم لان النعمن عاد الى بغداد واستخلف بفارس ابا مسلم محمد بن محمد وضمن البلد من ابن رستم وجعل ابا مسلم مستوفياً عليه للمال .

بسم الله الرحمن الرحيم الى احمد بن محمد بن رستم من عبد الله جعفر الامام المقتدر بالله امير المؤمنين والنسخة واحدة الى قوله اما بعد فان الله بعظيم آلائه وقديم نعمائه وجميل بلائه وجزيل عطائه جعل اموال الفيء للدين قواماً وللحق نظاماً وللعز تماماً فاوجب للائمة حمايتها وحرم عليهم اضاعتها

«١» عند هلال : بالف الف درهم . «٢» م . ع : في القاموس الطسق بالفتح مكيال اوما يوضع من الخراج على الجربان او شبه ضريبة معلومة . «٣» م . ع : تحفظ الكتاب استظهره شيئاً بعد شيء .

اذا كان ما يجتبى منها عائداً بصلاح العباد وحراسة البلاد وحماية البرية وحياطة الحوزة والرعية ولذلك يعمل امير المومنين فكره ورويته ويستفرغ وسعه وطاقته في حراستها وحياطتها وقبض كل يد عن تحيفها(١) وتنقصها والله ولي معونته على جميل نيته وحسن طويته بمنه ورحمته . ولما فتح الله عز وجل (كور فارس) على المسلمين وازال عنها ايدي المتغلبين وجد امير المؤمنين اهلها قد احتالوا في اسقاط خراج الشجر باسره مع كثرته وجلالة قدره وامر باشخاص وجوههم الى حضرته واتصلت المناظرة لهم بمشهد من قضاته وخاصته الى ان اعترفوا به مذعنين والتزموه طائعين وضمنوا اداء ما اوجبه الله تعالى فيه من حقوقه على ما تقرر معهم من وضائعه (٢) وطسوقه فتطالب بخراج الشجر في سائر الكور على استقبال سنة ٣٠٣ فاستخرجه واستوفى جميعه واستنظفه واكتب بما ارتفع من مساحته ويتحصل من مبلغ جبايته متحرياً للحق متوخياً للرفق ان شاء الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . وكتب علي بن عيسى يوم الاثنين لعشر ليال خلون من شعبان سنة ٣٠٣ .

حدثني ابو الحسين قال حدثني ابو الحسين عبد الواحد بن محمد الخصيبي (٣) وهو ابن بنت ابراهيم بن المدبر . قال حدثني ابو الفضل صاعد

«١» م . ع : تحيف الشيء تنقصه من حيفه اي نواحيه جمع حيفة . «٢» م . ع : جمع وضيعة وهي ما يأخذه السلطان من الخراج والعشور . «٣» م . ع : بفتح الخاء كما في التاج .

ابن هارون بن مخلد بن ابان قال حدثني عدة من جلة الكتاب عن كاتب كان يخط بين يدي المورياني (١) وهو وزير المنصور قال كنت يوماً بحضرته على خلوة فدخل عليه حاجبه وقال بالباب رجل يذكر انه يريد ان القي اليك شيئاً مهماً .قال اسمع منه ما يقوله وادّه اليّ قال قد سمته ذلك فابى وبذلت ان اخرج اليه كاتباً فامتنع من ذلك وقال اما ان اصل اليه او انصرف . قال فما زيه ؟ قال زيّ التناء قال هاته فادخله فلما وصل استأذنه في السرار فاذن فدنا اليه فاطال سراره ثم دعا بخازنه فقال خذ ما يدفعه اليك .ثم قال لي قم فاكتب له بكلما يريده على املائه وان التمس توقيعي في شيء منه فانفذه اليّ مع غلامك.قال فقمت فكتبت له بما املاه وعدت وعرفته ازاحتي علته فيما طلبه فجعل يبكي بكاء شديداً فسألت غلمانه هل ورد بعدي شيء يكرهه فقالوا لا . فقلت يا سيدي ما هذا البكاء وكنت آنساً به فقال ان هذا الرجل لقيني منذ اكثر من سنة انه من بني البختكاني وذكر كبر نعمته وانا بهم عارف . ووصف ان العمال يحيفونه ويستضعفونه وسألني ان اوقع اسمي على ضيعته واظهر اني قد استأجرتها منه واكاتب العمال ووكلائي بذلك وان نفد يده منها اذ كنت قد وثقت به على ذلك وبذل لي النصف من ارتفاعه بعد المؤونة حلالاً فوافقته على ذلك وكتبت له بما اراد ومضى ولم تبتغ نفسي الاستقصاء

«٣» م . ع : نسبة الى موريان قرية من نواحي خوزستان واسمه سليمان ابن ابي سليمان ابن ابي مجالد وقتله المنصور .

عليه ولا الاستظهار ولا مضايقته وقلت امله اراد الانتفاع بجاهي فلا احرمه اياه فان وفا (١) والا كان ذلك من زكاة الجاه ثم انسيت امره فاذكرته حتى رأيته الساعة فاعلمني انه يتردد منذ مدة الى الباب فلا يصل. واعلمني انه قد حصل لي من ذلك مائتا الف درهم واوقفني (٢) على حساب رفعه واستأذنني في تسليم المال وسالني تجديد الكتب بمثل ما كنت كتبت به اليهم في السنة الماضية في امر هذه الضياع فتقدمت الى خازني بقبض المال وتقدمت اليك فكتبت عني بذلك فانا ابكي لهذه الحال. فقلت له يا سيدي فاي شيء هذا مما يبكيك فقال ويحك ويذهب هذا عليك مع طول ملازمتي وخدمتي قد كنت عندي انك تحنكت بخدمتي. امرؤ يكون هذا من اقباله فكيف يكون ادباره؟ قال فما بعد ان قبض عليه المنصور ونكبه واستصفى ماله واموال اهله وقتله. قال ابو الحسين عبد الواحد بن محمد فحدثت بهذا الحديث ابا الحسن علي بن محمد بن الفرات وابا الحسن علي بن عيسى كل واحد على الانفراد في وقت مفرد فكل واحد منهما افرط في استحسانه حتى سأل ان امليه عليه فكتبه عني بخطه . «للبحث صلة»

---

(١) م . ع . كذا في الاصل والصواب وفى . (٢) م . ع كذا في الاصل والفصيح وقف بغير الف في جميع معانيها .

اسامة بن منقذ

— ٢ —

« أسامة في وادي موسى »

لقي أسامة ضيقاً شديداً في وقعة كانت بينه وبين الفرنج قتل فيها ابنه حسام الملك وأسر ابنه ناصر الدين واخوه نجم الدولة ابو عبد الله محمد واخذت خزائنه وحرمه وقتل الفرنج كل من ظفروا به ، وهو بمن معه تحصن في الجبال .

يقول أسامة : فسرنا في اشد من الموت في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال ولا علف للخيل الى ان وصلنا جبال بني فهيد لعنهم الله في وادي موسى وطلعنا في طرقات ضيقة وعرة الى ارض فسيحة وهناك رجال وشياطين رجيمة من ظفروا به منا منفرداً قتلوه وتلك الناحية لا تخلو من بعض بني ربيعة الامراء الطائيين فسألت من هاهنا من امراء بني ربيعة قالوا منصور بن عذقل وهو صديقي ودفعت لواحد دينارين وقلت له امض الى منصور قل له صديقك بن منقذ يسلم عليك و يقول لك صل اليه بكرة ، ثم جاء منصور بن عذقل فصاح بالاعراب وسبهم فتفرقوا وقال اركب فركبنا وجعت للامير الف دينار مصرية ودفعتها له وعاد وسرنا حتى وصلنا دمشق بمن سلم من الافرنج وبني فهيد يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة نفسها .

« اول وقائعه »

سيره والده الى أفاميا سنة ٥١٣ لقتال الفرنج المخيمين بهـا وكان الانتصار حليفه يقول أسامة في وصف هذه الحملة فرجعت على فارس في اولهم قد القى عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين ايدينا فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتاً ، ثم استقبلت خيلهم المتتابعـة فولوا وانا غر ما حضرت قتالاً قبل هذا اليوم وتحتي فرس مثل الطير ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ، ثم أجنبت عنهم وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولامة الحرب ، انا خائف منه لا يكون جاذباً لي ليعود عليّ حتى رأيته ضرب حصانه بمهازه فلوّح بذنبه فعلمت انه قد أعيا فحملت عليه وطعنته فنفذ الرمح من قدامه نحواً

من ذراع وخرجت من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رمحي وانا أظن اني قتلته ، فجمعت اصحابي وهم سالمون وكان معي مملوك صغير بجرّ فرساً لي دهماء مجنوبة وتحته بغلة مليحة سروجية فنزل عن البغلة وسيّبها وركب الحجرة فطارت به الى شيزر ، فلما عدت الى اصحابي وقد أمسكوا البغلة سألت عن الغلام فقالوا راح فعلمت انه يصل الى شيزر ويشغل قلب الوالد ، فدعوت رجلاً من الجند وقلت أسرع الى شيزر وعرف والدي بما جرى ، فذهب فوجد الغلام يقصّ على والده الحالة ، ولما عاد أسامة قصّ عليه القصة .

« اقامته على عسقلان في قتال الفرنج »

أرسل الملك العادل أسامة للمسير الى الملك العادل نور الدين الشهيد وقال له خذ معك المال المطلوب وامض اليه لينازل طبرية ويشغل الفرنج عنا لنخرج من ههنا نخرب غزة ، وكان الفرنج قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان . فقال له أسامة : فان اعتذر او كان له من الأشغال مايعوقه فأي شيء تأمرني به . فقال : ان نزل على طبرية فأعطه المال الذي معك وان كان له مانع فدوّن ما قدرت عليه من الجند واطلع الى عسقلان أقم بها في قتال الفرنج واكتب اليّ بوصولك لآمرك بما تعمل ودفع اليه ستة آلاف دينار مصرية وحمل جمل دبيقياً ورتب معه قوماً من العرب ادلاء .

« في طريقه الى عسقلان »

يقول أسامة فلما دنونا من الجفر قال لي الأدلاء هذا مكان لا يكاد يخلو من الفرنج فأمرت اثنين من الادلاء ركبا مهريين وسارا قدامنا الى الجفر فوقفت وجمعت الجمال التي عليها ثقلي ورددتها الى العرب وندبت ستة فوارس من مماليكي وقلت تقدموا وانا في أثركم فساروا يركضون وأنا أسير خلفهم فعاد اليّ واحد منهم وقال ما على الجفر احد ولعلهم أبصروا عرباً وتنازع هو والأدلاء فنفذت من رد الجمال وسرت فلما وصلت الجفر وفيه مياه وعشب وشجر ، قام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود فأخذناه ونفرق أصحابي فأخذوا رجلاً آخر وامرأتين وصبيين فجاءت امرأة منهن أمسكت ثوبي وقالت ياشيخ انا في حسبك ، قلت انت آمنة مالك ؟ قالت فداخذ اصحابك لي ثوباً وناهقاً ونابحاً وخرزة فقلت لغلماني من كان اخذ شيئاً فليرده فردت هذه الاشياء اليهم ، جمع هؤلاء

أسامة حين رأى بهم من الضر ما رأى وقد يبست جلودهم على عظامهم ، وسألهم من اين انتم ؟ فقالوا نحن من بني أبي وبنو أبي فرقة من العرب من طي لا يأكلون الا الميتة ويقولون نحن خير من العرب ، ما فينا مجزوم ولا أبرص ولا أعمى ، واذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم ، ثم سألهم كم لكم هنا فقالوا من عيد رمضان ما رأينا الزاد باعيننا ، قلت : فمن اين تعيشون ؟ قالوا : من الرمة (يعنون العظام البالية) الملقاة ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف (شجر بتلك الارض) ونتقوت به ، قال : فكلابكم قالوا : الكلاب نطعمها من عيشنا والحمر تأكل الحشيش ، فقال : فلماذا لا تدخلون الى دمشق ؟ قالوا: خفنا الوباء (ولا وباء أعظم مما كانوا فيه) وكان ذلك بعد عيد الاضحى فوقف حتى جاءت الجمال وأعطى هؤلاء الاعراب من الزاد الذي كان معه ، ثم قطع فوطة كانت على رأسه وأعطاها للمرأتين فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد ، ثم أسدى اليهم النصح راغباً عدم اقامتهم في هذا المكان خوفاً عليهم من ان يسبيهم الافرنج .

« وقوعه في التيه »

وقع اسامة في تيه اثناء مجيئه الى نور الدين الشهيد في بصرى ولولا لطف الله لهلك في هذا التيه وقد وصف تيهه وصفاً بطول شرحه هرب منهم البغل في اثناء رحلته هذه وعليه اربعة آلاف دينار فلحقه بفرسه فأعيا عن اللحاق به وقد كان لحقه الغلام ايضاً فعاد بالخرج دون البغل قائلاً يامولاي وجدت الخرج ولم اجد البغل فقال للخرج كنت اطلب والبغل اهون مفقود .

« صيده وقنصه »

كان أسامة ولوعاً بالصيد والقنص كما ولع به ابوه من قبله فقد كان والده ليس له شغل سوى الحرب وجهاد الافرنج الصليبيين يركب الى الصيد يوماً و يستريح يوماً ، نسخ عند فراغه ستاً واربعين مصحفاً يخطه منها ختمتان بالذهب جميع القرآن وكان صواماً قواماً .

كان لأسامة في شيزر متصيدان متصيد للحجل والارانب في الجبل قبلي البلد ، ومتصيد لطير الماء والدراج والارانب والغزلان على النهر في الازوار من غربي البلد ، وكان يتكلف في تسيير قوم من اصحابه الى البلاد لشراء البزاة فأنفذ الى القسطنطينية من احضر منها بزاة وقد حمل الغلمان معهم من الحمام ما ظنوا انه يكفي البزاة التي معهم

فتغير عليهم البحر وتعرقوا ولم يبق من لحوم الطير فاضطروا ان يطعموا البزاة من لحم السمك فاثر ذلك في أجنحتها وصار ريشها ينكسر و ينقصف فلما وصلوا بها الى شيزر كان فيها بزاة نادرة وكان لدى والده خادم (بازيار) عارف في اصلاح البزاة وعلاجها يقال له غنائم فوصل اجنحتها واصطاد بها وقرنص بعضها عنده وكان اكثر ما يستدعي البزاة و يشتريها من وادي الاحمر ، وحسبنا ان نلم الى صيده وقنصه الماعاً ضاربين صفحاً عن كل ما وقع له في صيده وتربيته البزاة .

« صيده مع الملوك والامراء »

حضر الصيد مع والده مرشد بشيزر في صدر العمر ومع ابنـاء عمه بها ومع ملك الامراء اتابك زنكي بن آق سنقر .

ومع الملك العـادل نور الدين ابي المظفر محمود بن اتابك زنكي رحمه الله ، وبديار بكر مع الامير فخر الدين قرا ارسلان بن داود بن ارتق .

« ادب أسامة وشعره »

أسامة اديب كما اسلفنا تلمس من شعره الجزالة والسهولة لم يستعمل عويص الالفاظ ولا وحشي الكلام مدح في شعره وعتب وبكى وتغزل وحرض وفخر وحن الى الاوطان حنين الابل الى الاعطان حتى انه ضرب في كل فن وتناول طرفاً من كل علم ، وله ديوان شعر في مجلدين لم اعثر عليها بالرغم عن كثرة بحثي وتطلعي ولكني لم اعدم الحصول على شيء كثير منه في اثناء مطالعتي الكتب وتصفحي اياها ومن جملة ما عثرت عليه كتاب العصا وهو في نحو مائة وخمسين صفحة نسخته على نسخة طبعت في باريز كنت أوصيت عليها صديقي الحميم ورفيق الدراسة المرحوم الدكتور صالح قنباز وانا اليوم آخذ بتصحيحها وضبطها وشرحها وزيادة ماعثرت عليه في العصا حتى يجيء الكتاب جامعاً وافياً بالمرام .

« نتف من شعره »

وقعت نفرة بينه وبين ابن عمه صاحب شيزر لمقالة بلغته فكان ينظم في العتاب ماهو مستطاب . ومما كتبه لابيه يدل على كرم محتده وسامي أخلاقه وعظيم خلاله قوله :

وما أشكو تلون اهل ودي ولو أجدت شكيتهم شكوت

مللت عتابهم ويئست منهم فما أرجوهم فيمن رجوت

اذا أدمت قوارصهم فؤادي صبرت على أذاهم وانطويت
وجئت اليهم طلق المحيا كأني ما سمعت ولا رأيت
تجنّوا لي ذنوباً ما جنتها يداي ولا أمرت ولا نهيت
ولا والله ما أضمرت غدراً كما قد أضمروه ولا نويت
ويوم الحشر موعدنا وتبدو صحيفة ما جنوه وما جنيت

وله ايضاً يشكو من الهجران :

لا تستعر جلداً على هجرانهم فقواك تضعف عن صدود دائم
واعلم بانك ان رجعت اليهم طوعاً والا عدت عودة راغم

وله قصيدة سير بها الى ابن عمه صاحب شيزر يعتذر له عن قول بلغه عنه جاءت على قافية الفاء تبلغ خمسين بيتاً مطلعها :

أطاع ما قاله الواشي وما عرفا فراح ينكر منا كل ما عرفا

ومما أحفظه له يتشوق الى اهله وصحبه ويحن فيه الى وطنه وهو من الشعر المنسجم الذي يدخل الأذان بغير استئذان :

ما يريد الشوق من قلب معنّى ذكر الآلاف والوصل فجنّا
حسبه من شوقه ما عنده وكفاه من هواه ما اجنّا
كلما شاهد شملاً جامعاً طار وجداً وهفا شوقاً وانا
فرثى من رحمة عاذله ورأى الحاسد فيه ماتمنى
ويحه من حرق تعتاده وهموم جمة تطرق وهنا
يا زمان الوصل سقياً لك من زمن لو كان قرب الدار عنا
قل لأحباب نأت دارهم وعلى قربهم أقرع سنا
ساء ظني باصطباري بعدكم ولقد كنت بكم أحسن ظنا

« وصف الزلزلة الكبرى في شيزر وحماة »

في سنة ٥٥٢ كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة اخربت البلاد واهلكت العباد وكان اشدها بمدينة حماة وحصن شيزر كما قال ابن الاثير فانهما خربا بالمرة وخرب ما جاورهما كحصن بارين والمعرة وغيرهما من البلاد وهلك تحت الردم

من الخلق مالا يحصيه الا الله ولولا ان من الله تعالى على المسلمين بنور الدين فيصلح ماتهدم ويحفظ البلاد لهلكت البقية الباقية منهم واصبحت لقمة سائغة في افواه الفرنجة . ومن غريب ما يروى ان بعض المعلمين بحماة ذكر انه فارق المكتب لمهم فجاءت الزلزلة فاخربت الدار وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يأت احد يسأل عن صبي كان له في المكتب مما يدل على ان الزلزلة اخذت اولياءهم ايضاً .

في هـذا الزلزال سقطت قلعة شيزر على آل منقذ ولم تبق على احد منهم اللهم الا امرأة اخرجت من الردم ، ومما يروى انه بينما كان احد ابناء آل منقذ فاراً من الزلزال حتى اذا وافى باب القلعة رمحه الحصان فمات لوقته وبهذا لم ينج احد من آل منقذ الذين هم داخل القلعة ، اما المرأة التي اخرجت من الردم فهي زوجة ابي الفضل اسماعيل بن ابي العساكر بن علي بن مقلد تدعى الخاتون اخت شمس الملوك بنت بوري بن طغتكين ولما جاء نور الدين الشهيد الى استلام شيزر طلب من هذه المرأة ان تعلمه عن المال وهددها فذكرت ان الردم سقط عليها وعليهم ونبشت هي دونهم ولا تعلم بشيء واذا كان لهم شيء فهو تحت الردم وكان شرف الدولة غائباً بخضر بعد الزلزلة وعاين ما فعلت بشيزر واخيه وشاهد امرأة اخيه بعد العز في ذلك الذل فعمل :

لبس الصباح من المساء بامثل فأقول لليل الطويل الا انجلي
شلت يد الايام ان قسيها ما ارسلت سهما فاخطا مقتلي
لي كل يوم كربة من نكبة يهمي لها جفني وقلبي يصطلي
يا تاج دولة هاشم بل يا ابا التيجان بل يا قصد كل مؤمل
لو عاينت عيناك قلعة شيزر والستر دون نسائها لم يسبل
لرأيت حصناً هائل المرأى غدا متهيلاً مثل النقا المتهيل
لا يهتدي فيه السعاة لمسلك فكأنما يسري بقاع مهول

ومما قاله فيها يذكر امرأة اخيه المذكورة .

نزلت على رغم الزمان ولو حوت يمناك قائم سيفها لم تنزل
فتبدلت عن كبرها بتواضع وتعوضت عن عزها بتذلل

« أسامة يرثي اهله »

أسامة رثى اهله الذين هلكوا في هذا الزلزال رثاءً مستفيضاً وبكاهم كثيراً في شعره اكتفي بذكر شيء من قصيدته النونية لان له مراثي كثيرة بكى فيها ذلك العز الشامخ بعيون هتانة هطالة وهي :

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم ... ولا تخرّمهم مثنى ووحدانا
فكنت اصبر عنهم صبر محتسب ... واحمد الخطب فيهم عز أو هانا
واقتدي بالورى قبلي فكم فقدوا ... أخاً وكم فارقوا اهلاً وجيرانا
لكن سقيت المنايا وسط جمعهم ... رغماً فخروا على الاذقان اذعانا
وفاجأتهم من الايام قارعة ... سقتهم بكؤوس الموت ذيفانا
ماتوا جميعاً كرجع الطرف وانقرضوا ... هل ما ترى تارك للعين انساناً
اعزز علي بهم من معشر صبروا ... على الحفيظة ان ذو لوثة لانا
لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم ... قلباً اجشمه صبراً وسلوانا
فلو رأوني لقالوا مات اسعدنا ... وعاش للهم والاحزان اشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبرني ... عنهم فيوضح ما قالوه تبيانا
بادوا جميعاً وما شادوا فواعجباً ... للخطب أهلك عُمّاراً وعمرانا
هذي قصورهم أمست قبورهم ... كذاك كانوا بها من قبل سكانا
ويح الزلازل افنت معشري فاذا ... ذكرتهم خلتني في القوم سكرانا
لا اتقى الدهر من بعد الزلازل ما ... حييت الا كسير القلب حيرانا
اخنت على معشري الادنين فاصطلمت ... منهم كهولاً وشباناً وولدانا
لم يحمهم حصنهم منها ولا رهبت ... بأساً تبادره الاقران ازمانا
ان أقفرت شيزر منهم فهم جعلوا ... منيع أسوارها بيضاً وخرصانا
هم حموها فلو شاهدتهم وهم ... بها لشاهدت آساداً وخفّانا
تراهم في الوغى أسداً ويوم ندي ... غيثاً مغيثاً وفي الظلماء رهبانا
بنوا ابي وبنوا عمي دمي دمهم ... وان أروني مناواة وشنآنا
يطيّب النفس عنهم انهم رحلوا ... وخلفوني على الآثار عجلانا

« مراسلاته مع ابن رزيك »

وكانت بينه وبين الصالح بن رزيك مراسلات شعرية ومطارحات أدبية أفردت لها رسالة خاصة ، وقد أرسل الى أسامة يعزيه بقومه الذين هلكوا بالزلزال في قصيدة مطلعها :

بأبي شخصك الذي لا يغيب عن عياني فهو البعيد القريب

ومنها : كره الشام اهله فهو محقو ق بأن لا يقيم فيه لبيب

ان تجلت عنه الحروب قليلاً خلفتها زلازل وخطوب

رقصت ارضه عشية غنى الرعد في الجو والكريم طروب

وتثنت حيطانه اذ أمالتها شمال بزمرها وجنوب

لا هبوب لنائم من أمانيـ ـه وللعاصفات فيها هبوب

ومنها : لهف نفسي على ديار من السكان اقوت فليس فيها مجيب

فاحتسب ما اصاب قومك مجد الدين واصبر فالحادثات ضروب

وكتب أسامة الى الصالح طلائع ابن رزيك هذا يسأله تسيير اهله الى الشام وكان الصالح بن رزيك يتوقع رجوعه الى مصر من حين لآخر ويسير له الرسائل طالباً عودته الى مصر ، وأسامة لايرغب بالعودة بعد حوادث ابن السلار والظافر العبيدي .

اذكرهم الود ان صدوا وان صدفوا ان الكرام اذا استعطفتهم عطفوا

ولا ترد شافعاً الا هواك لهم كفاك مااختبروا منه وما كشفوا

يا جيرة القلب والفسطاط دارهم لم تصقب الدار لكن أصقب الكلف

فارقتكم مكرهاً والقلب يخبرني ان ليس لي عوض منكم ولا خلف

ولو تعوضت بالدنيا غبنت وهل يعوضني عن نفيس الجوهر الصدف

ولست انكر ما يأتي الزمان به كل الورى لرزايا دهرهم هدف

ولا أسفت لأمر فات مطلبه لكن لفرقة من فارقته الاسف

المالك الصالح الهادي الذي شهدت بفضل ايامه الأنباء والصحف

ملك أقل عطاياه الغني فاذا أدناك منه فأدنى حظك الشرف

سعت الى زهده الدنيا بزخرفها طوعاً وفيها على خطابها صلف

مسهد وعيون الناس هاجعة على التهجد والقرآن معتكف

وتشرق الشمس من لألاء غرته　　في دسته فتكاد الشمس تنكسف

فأجابه الصالح وكان يجيد النظم رحمه الله :

آدابك الغر بحر ما له طرف　　في كل جنس بدا من حسنه طرف

نقول لما اتانا ما بعثت به　　هذا كتاب اتى ام روضة أنف

اذا ذكرناك مجد الدين عاودنا　　شوق تجدد منه الوجد والاسف

يا من جفانا ولو قد شاء كان الى　　جنابنا دون اهل الارض ينعطف

« كتبه وتآليف »

لأسامة كتاب الاعتبار ترجم الى اللغة الافرنسية وترجم اخيراً الى اللغة الانكليزية وعنونه المترجم بقوله « الرجل الكامل » وهو يشتمل على ترجمة نفسه ، وله كتاب العصا وازهار الأنهار وكتاب البديع [1] واختصر سيرة عمر بن الخطاب تأليف ابن الجوزي البغدادي وقد عثرت على هذا الكتاب ونسخته وبعثت بالاصل مع مختصر الموافقة بين آل البيت والصحابة للزمخشري الى العلامة المرحوم احمد تيمور ، وله التاريخ البدري واخبار البلدان وذيل على خريدة القصر للباخرزي . وكانت لديه مكتبة عامرة تشتمل على غرر المخطوطات ونفائسها تبلغ اربعة آلاف مجلد .

« أخذه الامان لاهله من الفرنج في جلبهم من مصر »

استقدم عائلته واولاده من مصر في مركب بعد ان اخذ لهم الامان من الفرنج فما كان منهم الا ان أخذوا من النساء ما معهم من الحلي والجواهر والذهب والفضة بما يقدر بثلاثين الف دينار ، يقول أسامة فهون عليّ سلامة اولادي واولاد أخي وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال الا ماذهب لي من الكتب فانها كانت اربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة فان ذهابها حزازة في قلبي ما عشت فهذه نكبات تزعزع الجبال . ولا ريب هذه الكتب التي فقدها هي غير الكتب التي كانت لديه في شيزر ولدى والده .

(١) قال في كشف الظنون كتاب البديع في علوم الشعر لأسامة بن منقذ اوله : « الحمد لله الحي القيوم » الخ ذكر فيه انه جمع ما تفرق في كتب العلماء من نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه وانه وقف عليه اه .

« نموذج من كتاب العصا »

اخترته لما له من العلاقة بدمشق

يقول أسامة رحمه الله حضرت بدمشق وقد وقع بين العميان وبين رجل كان يتولى وقفهم يعرف بابن البعلبكي خلف فلقوا فيه صاحب دمشق شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري رحمه الله عدة مرار فقال للامير مجاهد الدين تالله خلصني منهم واجمعهم واحضر نائبهم في الوقف وافصل حالهم فقال السمع والطاعة وقال لي مجاهد الدين تفضل واحضر معنا فاجتمعنا في ايوان كبير في دار وحضر النائب ابن البعلبكي ونائب كان قبله يقال له ابن الفراش وحضر العميان في نحو من ثلاثمائة رجل فحملوا قدامهم ودخلوا الايوان كل واحد وعصاه معه في يده وضعها الى جنبه ، ثم تجاروا الحديث فكان بعضهم هواه مع النائب الاول ابن الفراش وبعضهم هواه مع ابن البعلبكي فتنازعوا وتخاصموا ساعة ولا يتدخل بينهم لعلو أصواتهم وكثرتهم ثم تواثبوا فارتفع في الايوان نحو من ثلاثمائة عصا في ايدي العميان لايدرون من يضربون وعلا الضجيج والصياح حتى ندمت على حضوري فتلطفنا في الامر حتى سكنت الفتنة بينهم ومشينا امرهم على ما أرادوا وماصدقنا انهم ينصرفون .

« نموذج من شعره في العصا »

كتب في كتاب الى ولده الامير عضد الدين ابي الفوارس مرهف الى مصر يطلب منه عصا من آبنوس وكان مرهف مؤسراً في مصر من قبل صلاح الدين رحمه الله :

أريد عصا من آبنوس تقلني ... فان الثمانين استعادت قوى رجلي
ولو بعصا موسى النقيب لآدها ... على ما بها من قوة حملها ثقلي
ولكن تمنينا الرجاء بباطل ... وكم قدر ما نرجي المنايا وكم تملي
اذا بلغ المرء الثمانين فالرد ... يناجيه بالترحال من جانب الرحل

« وله في شيخوخته »

يشكو ضعف جسمه ويأسف على شبابه ويذكر من طول العمر والمدد :

مع الثمانين عاث الضعف في جلدي ... وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
اذا كتبت فخطي جدّ مضطرب ... كخط مرتعش الكفين مرتعد

وان مشيت وفي كفي العصا ثقلت رجلي كأني أخوض الوحل في الجلد
فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً من بعد حطم القنا في لبة الأسد
فقل لمن يتمنى طول مدته هذي عواقب طول العمر والمدد

« هو والاسد »

حقاً ان أسامة لقد حطم القنا في لبة الاسد : بلغه ان هناك اسداً على شاطىء الفرات يمنع الناس من المرور ولم يستطع احد ان يتعرض لقتله وانقاذ الناس من شره فما كان منه الا ان هب ذات يوم متقلداً سيفه ورمحه دون ان يعلم اهله وذوي رحمه ومضى الى الفرات حيث مقر الاسد وما هي الا بضع دقائق على منازلته اياه حتى حطم القنا في لبته فخر صريعاً لليدين وللفم ثم جاء بآثاره الى شيزر فأكبر أهله عمله وكان يوماً مشهوداً .

« ضرائح العظماء تهان »

هؤلاء آل منقذ يا سادة وذاك طرف من أخبارهم وهذا أسامة بن منقذ القائد العظيم والبطل المغوار الذي كان يد نور الدين العاملة في صد اغارات الفرنج وفي الفتوح والذي كان يخطب ود الامراء والملوك قد الممت بشيء من ترجمته وأتيت على نتف من شعره وذكرت انه بعد البحث والتنقيب في بطون التاريخ تحقق لدي انه دفن في سفح قاسيون — من ترى وقف على ضريحه وعرف مقره ؟ لقد ذهبت غير مرة الى ذلك السفح الذي ضم أعاظم الرجال ، وبحثت بين الضرائح فلم أقف له على أثر ولعلي جهلت مقره فلم اهتد اليه ، ولكني شاهدت أصحاب البنيان قد امتدوا الى الضرائح فتناولوها وقوضوا دعائمها وبعثروا رفاتها وطمسوا اعلامها وشوهوا محاسنها وداسوا حرمتها ولا من ينهى أصحاب هذا البنيان عن عملهم او يفكر في نقل رفات العظماء الذين يجب ان تبقى ضرائحهم ماثلة ليراها ابناؤنا واحفادنا واحفاد احفادنا فيتخذوها قدوة صالحة لهم تبعث من الهمم وتحض على العمل ، ولسان حالها ينطق انهجوا مناهجنا واسلكوا سبيلنا واقتفوا آثارنا فلا حياة لكم ولا صلاح الا بما صلح به اولكم ، أليس من العار ان نهين عظماءنا ولا نفكر في حفظ ضرائحهم وصونهـا من إغارة المغيرين الجشعين النهمين الذين لا تأخذهم رأفة على الأمة في محو آثارها ومزاحمة ضرائح أعلامها ؟

أنضيع دمشق ضريح ابن منقذ مع الضرائح الضائعة من ضرائح العظماء والعلماء وهي

مهد العروبة وعنها يؤخذ الشمم واليها ينتمي الاباء ؟

فالى تجديد ضرائح العظماء أيها السادة الى الاحتفاظ بها فهي الواعظ الأقوى للابناء والمرشد الأمين للأحفاد يدفع بهم الى الامام ، وكأني بابي العلاء فيلسوف العرب قد أدرك منذ ذلك الحين ان الناس يهينون العظماء ولا يعنون بضرائحهم فأهابت به نفسه للذود عنها والدعوة الى احترامها والنصح في الابقاء عليها وعدم الإجهاز على اصحابها فطفق ينشد وما أجمل هذا الانشاد :

صاح هذي قبورنا تملأ الرحـ ـب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض الا من هـذه الاجساد
سر ان اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد
فقبيح بنـا وان قدم العهـ ـد هو ان الآباء والأجداد

« عودة للبحث عن ضريح ابن منقذ »

أليس من العار ان لا نعرف مقر ابن منقذ وهو هو الذي ذكرت من وقائعه وعلمه ونبله ؟

هذا نابليون رجل فرنسا وعبقريها الفذ بعد وفاته في جزيرة القديسة هيلانة واستحالته الى رفات بالية وعظام نخرة هب الفرنسيون من باريز فاستخرجوه من ضريحه ورجعوا به الى قلب بلادهم يعيدون به ذكر نابليون ويبثون في أمتهم ما كان لهم من العظمة والإباء والمجد والفخار .

الضرائح في الاسلام لها حرمتها ولها مكانتها فكيف بضريح علم من الاعلام وقائد من اكبر القواد كابن منقذ وأضرابه من عظماء الامة وقادة الرأي المفكرين .

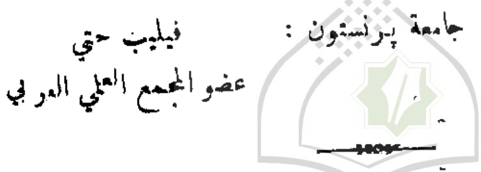
هذا واني لأرجو من المجمع العلمي متطفلاً على مائدته ان يؤلف لجنة في البحث عن ضريح ابن منقذ ومن على شاكلتـه من الأبطال الذين خدموا الامة وزادوا عن حياضها ونفعوا بعلمهم ودرايتهم راجياً ان يحل اقتراحي لديه محل القبول .

طاهر النعساني

آراء وافكار

في عدد كانون الثاني — شباط سنة ١٩٣٠ من المجلة مقال موسوم بـ « قوة الحافظة وكثرة المحفوظات » بقلم الشيخ كامل الغزي أورد فيه الكاتب (ص ١٢٠ — ٢١) حكاية عن لسان الامير أسامة بن منقذ ، يؤخذ منها ان أسامة اجتمع بابي العلاء المعري وهو صبي في انطاكية وامتحن قوة ذاكرته وأعجب بها . ولكن أسامة ولد عام ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) واباالعلاء توفي عام٤٤٩ (١٠٥٨) فبينهما قرن كامل والواحد منهما لم يعاصر الآخر . ولا أثر لهذه القصة في مذكرات أسامة المعنونة بـ « كتاب الاعتبار » . فمن اين تُرى أتى بها الشيخ الغزي ؟ .

جامعة برنستون : فيليب حتي
عضو المجمع العلمي العربي



من نوادر المخطوطات
« في دار الكتب الظاهرية »
— ٣

كتاب ادب السلوك . — لابي الفضل عبدالمنعم بن عمر بن عبدالله الاندلسي المتوفى سنة ٦٠٣ هـ المشتمل — كما جاء في مقدمته — على مشارع كلمات الحكمة والادب والاخلاق وهو يقع في ٢١٦ صفحة صغيرة يرجع تاريخ كتابته الى القرن الثامن الهجري .

قاموس الاطباء وناموس الالباء . — لمدين بن عبد الرحيم القوصي المصري من أطباء القرن الحادي عشر الهجري وهو في المفردات الطبية في ٣٥٨ صفحة كبيرة . (رقم ١٠٨ : الطب) .

ما لا يسع الطبيب جهله — ليوسف بن اسماعيل المعروف بابن الكبير من اطباء

القرن الثامن وهو في مجلد ضخم يقع في ٨٠٠ صفحة كبيرة كتب سنة ١١٣٣ هـ (رقم ١٠٣ الطب) .

منهاج البيان فيما يستعمله الانسان . — لابي العباس يحيى بن عيسى الكاتب الملقب بالرئيس الأجل المتوفى سنة ٤٩٣ هـ ضمنه ذكر جميع الادوية والاشربة والاغذية وكل مركب بسيط ومفرد ورتبه على حروف المعجم وهو في جزءين في مجلد واحد ينقص الجزء الاول منه ورقة واحدة وكان الفراغ من نسخه سنة ٩٦٢ (رقم ١٠٧ : الطب) .

خلاصة تحقيق الظنون في الشرح والمتون . — تأليف كمال الدين محمد بن مصطفى الصديقي وهو ذيل لكشف الظنون وقد ضم مؤلفه ما زيد على كتب العلم من الكتب وما لم يطلع عليه صاحب كشف الظنون (فنون متنوعة رقم ٤٣) .

شذرات الذهب في اخبار من ذهب . — تأليف عبد الحي بن احمد المعروف بابن العماد الحنبلي الدمشقي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ وهو في ١٠٩١ صفحة كبيرة بخط شعبان الخزرجي سنة ١٠٨٥ (رقم ٣٨٧ : التاريخ) .

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . — تأليف ابي الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ وهو في مجلد كبير عدد صفحاته ٥٤٧ وفيه خط ابراهيم البقاعي (رقم ٣٨٨ : التاريخ) .

طبقات النحاة واللغويين . — تأليف ابي بكر احمد بن محمد بن عمر تقي الدين بن قاضي شهبة الاسدي الدمشقي المتوفى سنة ٨٥١ ويليه مختصر طبقات النحاة للزبيدي اختيار المحلي وهو في ٦٤٠ صفحة صغيرة كتب سنة ٩٥٠ (رقم ٤٣٨ : التاريخ) .

حسني الكسم

مطبوعات حديثة

فاوست

— ترجمها —

« الاستاذ محمد عوض محمد »

القصة وضعها شاعر المانية « غوتيه » .—

خلاصتها على وجه التقريب ان الدكتور « فاوست » خلا بنفسه ساعة ، فرأى انه قد جهد في كل شيء ، جهد في طلب الفلسفة والشريعة والطب وعلوم الدين وهو بعد هذا كله لم يخط الى المعرفة خطوة واحدة .—

وانه لفي هذه الوساوس وأمثالها اذ دخل ابليس عليه غرفته فتساقطا أطرافاً من الأحاديث ثم تعاقدا على ان يكون إبليس عبداً للدكتور « فاوست » في هذه الدنيا وعلى ان يكون الدكتور « فاوست » عبداً لإبليس في اليوم الآخر .—

وجزاء هذا التعاقد ان الدكتور « فاوست » سيريه إبليس في هذه الحياة ما لم تره العيون وما لم يخطر على بال .—

وعلى هذه الصورة نعم الدكتور « فاوست » بحياته وغرق في اللذات على اختلاف أنواعها ، وأفضت به لذاته الى الاستيلاء على قلب فتاة بلغ من حبها اياه ان قتلت أمها وابنها ، وأن كانت سبباً في قتل اخيها في سبيل حبيبها « فاوست » ثم سجنت .—

نعم : هذه خلاصة القصة ، ولكن الحكمة لا تجدها في القصة نفسها ، وانما تجدها في تضاعيف القصة ، انك لتجد في تحاور إبليس والله ، وفي تحاور « فاوست » والروح ، وفي تحاور « فاوست » وتلميذه ، وفي تحاور « فاوست » وابليس شيئاً من روح الفلسفة ، وهذا الشيء انما هو الاستهزاء بالقوانين والشرائع والفقه والدين والمذاهب كلها ، و بالنساء والكنائس ، فاذا أعجبتك قصة «فاوست» فانها تعجبك من ناحية أساليب التهكم ، على انك تجد بين تهكم الالمان وبين تهكم الفرنسيس من الفرق مثل ما تجده من الفرق بين طبائع الأمتين .—

* * *